مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥

روائع الأدب العربى
(الأعمال الفكرية)

أحمد بهاء الدين

أيام لها تاريخ




أيام لها تاريخ

طبعـة خاصة مختصـرة
للهيئـة المصـرية العـامـة للكتـاب
ضمن مشـروع مكتبـة الأسـرة

© دار الشروق

أسسها محمد المعلّم عام ١٩٦٨

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٢٩٣٣٣
فـاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN

أيام لها تاريخ

أحمد بهاء الدين



مهرجان القراءة للجميع ٩٥
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك

(روائع الأدب العربي)

(الأعمال الفكرية)

الجهات المشاركة :
جمعية الرعاية المتكاملة
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ : هيئة الكتاب

لوحة الغلاف
للفنان جمال قطب

الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

مقدمة

ايها القارئ :

هل عرفت أحدث تعريف للانسان ؟

لقد قيل مرة : انه حيوان ناطق ، ثم تبين أن الببغاء تنطق .

وقيل : انه حيوان ضاحك ، ثم تبين ان القرود تضحك .

وقيل : انه حيوان عاقل ، ثم تبين ان كل الحيوانات تعقل ، وأن كان العقل درجات !

وحار العلماء طويلا : فالانسان كائن حى ، يأكل ويشرب وينام ويعقل كغيره من الحيوانات . ولكن المؤكد ان هناك شيئا ما يميزه عن الحيوان . شيئا ارتقى به حتى أصبح هذا السيد الذى يحكم الحيوان والجماد ويقهر الطبيعة ..

واخيرا أهتدى العلماء الى التعريف الدقيق : الانسان حيوان ذو تاريخ !

ما معنى ذلك ؟

معناه أن الميزة الاولى التى تميز الانسان عن غيره من المخلوقات هى أن كل جيل

من البشر يعرف تجارب الجيل الذى سبقه ويستفيد منها .. وانه بهذه الميزة ـ وحدها ـ يتطور .. وعلى العكس من ذلك الحيوان .. فالاسد أو القط أو الكلب الذى كان يعيش فى الارض منذ ألف سنة لا يمكن أن يختلف عن سلالته التى نراها اليوم .. فى الصفات والطباع ونوع الحياة ..

انت تستطيع اليوم أن تصطاد الفأر الذى تجده فى بيتك بنفس الطريقة التى كان يتم اصطياده بها منذ زمن قديم .. مصيدة وقطعة جبن ! ولو كان فى بيتك عشرة فيران لاستطعت ان تصيدها وأحدا بعد آخر ، يوما بعد يوم بنفس المصيدة وقطعة الجبن .. ذلك ان الفيران ليس لها تاريخ ، ولا تستفيد من تجربة .. هى لا تعرف أن فى اليوم السابق دخل الفأر ليأكل الجبن فاغلقت عليه المصيدة ، وهى قد تعرف ولكنها لا تدرك المغزى .. فلا تتحاشى أبدا قطعة الجبن ..

وعلى العكس من ذلك .. الانسان .. انه يعرف ما أصاب أسلافه بالامس ، ومنذ مائة سنة ، ومنذ آلاف السنين .. فهو قادر على أن يتجنب زلاتهم ، ويستفيد من تجاربهم . ويضيف الى اكتشافاتهم .. وكل جيل لا يبدأ من جديد ولكن يضيف الى ما سبق .. وهذا هو التقدم .

على أن الانسان لا يولد وعبرة التاريخ فى جوفه .. ولكنه يتعلم .. فهو لا يستطيع أن يعرف التاريخ إلا اذا قرأ .. ان كان رجل قانون قرأ ما سبق اليه فقهاء القانون .. وان كان رجل كيمياء تعلم ما وصل اليه المكتشفون السابقون .. ومن حيث انتهوا يستطيع أن يبدأ .. وإن كان مواطنا فإنه يتعلم تاريخ وطنه كله ، ويدرك مغزاه ، وسر تطوره ، واتجاه خطواته ..

وليس يكفى ان تعرف حوادث التاريخ لكى تحسب انك قد تعلمت التاريخ .. فالاهم أن تستخلص من هذه الحوادث عبرتها : على اى شىء تدل ؟ .. وفى أى

طريق يمضى التاريخ ؟ .. فأن ذلك يجعلك تعلم ما سوف يحدث وما لا يمكن أن يعود .. فيجنبك أن تكون رجعيا ، ويحميك من السير وراء دعوات براقة فات وقتها .

والتاريخ هو الفرق بين الانسان الواعى ، وغير الواعى ..
الانسان غير الواعى لا يرى الا قطعة الجبن .
ولكن الانسان الواعى يرى قطعة الجبن ، ويرى المصيدة !

الادباتى .. خطيب الثورة ! .

لم يكن هناك فرق بين الاديب .. و (الادباتى) ! ..

أليس (الادباتى) رجلا يدور على المقاهى يقرع طبلة صغيرة فى يده ، ويهز طرطورًا على رأسه ، وينشد الازجال والاسجاع والفكاهات .. ثم يخلع الطرطور ويجمع فيه من الجالسين قروشا ؟ ..

كذلك كان الاديب فى ذاك الزمان .. كل صفاته أن يكون حافظا فكاهات القدماء ونوادر الخلفاء ، بارعا فى التلاعب بالكلمات .. هو لا يلبس طرطورا ولا يقرع طبلة ولا يدور على المقاهى .. ولكنه يمارس نفس العمل تقريبا فى بيئة اكثر احتراما : يجلس فى الندوات التى تعقد فى بيوت الاغنياء ، يدلى بفكاهاته وأسجاعه وينشد أبيات الشعر القديم .. وغالبا ما يكون طعامه او معاشه على هذا الغنى صاحب الندوة ..

ولم يكن بين الناس من كان (اديبا) وكفى .. ولكنك كنت ترى الواحد منهم موظفا او معلما او صاحب تجارة .. وأديبا الى جانب ذلك .. وكان من الشائع ان تعقد الندوات الادبية بجوار أبواب بعض الدكاكين التى يملكها الـ (أدباء) ! ..

وكان هذا مكملا للفكرة الشائعة عن الادب انه شيء للمتعة وتزجية الفراغ فحسب .. لا يمكن أن يكرس له انسان عاقل محترم كل حياته وكل جهده ..

ستقول أن بين الادباء فى زمننا هذا من لا تزيد مهمتهم ـ فعلا ـ على مهمة الادباتى .. يكتبون للتسلية والتسرية ، بلا موضوع ولا قصة .. ومنهم لا يزيد فضله على انه قد قرأ كتب الاقدمين أو المحدثين فهو يعرضها بألفاظ جديدة .. يلوح بها كما يلوح (الادباتى) بطرطوره .. بلا غاية غير كسب الرزق أو كسب الاعجاب .. وهذا صحيح كله ، ولكن تلك قضية اخرى ..

أما (الادباتى) الذى أقص عليك قصته .. فقد كان من اول المصريين الذين عرفوا لأدبهم رسالة وكرامة .. نعم ، فقد سبق هذا الادباتى أبناء عصره من الادباء .. وأصبح هو نفسه أديبا ، وخطيبا ، وصحفيا ، وزعيما من زعماء الثورة العرابية البارزين ! ..

وفى الاسكندرية ولد (عبد الله النديم) فى حارة ضيقة من حوارى حى الجمرك القريب من الميناء .. وفى حارة أخرى قريبة كان يوجد (فرن) بلدى صغير يملكه أبوه (مصباح) .. فاذا جاء المساء ، أغلق الرجال دكاكينهم ، وعاد عمال الميناء والباعة المتجولون الى بيوتهم .. واظلمت الحارة والحوارى المجاورة الا من ذبالات تخفق من النوافذ .. ونفض الاولاد أيديهم من التراب الذى يلعبون فيه .. وعكفت النساء على تجهيز العشاء الرخيص ، وجلس الرجال أمام احد بيوت الحارة يتحدثون عن متاعب يومهم ، ويدخنون ـ فى أيام الرخاء ـ أنفاس (الحشيش) ..

هذا هو المجتمع الذى فتح عليه (النديم) عينيه ! .

وكبر الصبى وخرج من حارته الى الحوارى المجاورة ..

وجرى مع الاولاد الى الميناء .. وتفرج على (الطابية) القديمة القائمة هناك .. ورآها يوما وهى تطلق مدافعها والبيوت الصغيرة من حولها تتساند وتهتز ، والناس بعد كل طلقة يصيحون .. وعرف من الكبار عندما عاد الى الحارة أن ذلك كان أعلانا بوفاة حاكم مصر (عباس باشا الاول) وتولية (سعيد) .. ولعله سمع منهم بعد أيام أن عباس كان رجلا شاذا قاسيا ، يسكن جوف الصحراء ويقتنى الوحوش الضارية .. وانه مات مخنوقا ، فى فراشه ، بأيدى خدمه ..

ولا بد انه قد اخذ يستمع مع الأيام الى مزيد من القصص والشكوى ... وانصت الى الكبار وهم يتحدثون عن الخواجات الذين يأتون مصر ويهبطون الميناء فى تلك الايام بكثرة غريبة .. خواجات مفلسون لا تمر عليهم سنوات قليلة حتى يصبحوا من أصحاب الثروات الطائلة .. خواجات تحنو لهم جباه الرسميين ويحاطون بحقوق ومزايا ترفعهم فوق مستوى المواطنين .. وهم يفتحون الخمارات ويرتهنون البيوت والاطيان .. والجو كله قد بدأت تملؤه رائحة (أفرنجية) غريبة .. والباشا الجديد (سعيد) يفتح لهذه الرائحة ذراعيه ، وخياشيمه وحواسه كلها .. ولم يكن صعبا ان يدرك الناس أن هذه الرائحة الافرنجية ليست رائحة ثقافة وحضارة وتجارة .. بل هى رائحة استغلال واستغفال وسرقة ..

وكان هذا هو أول ما تعلم (النديم) من سياسة ! ..

وكان أبوه قد أرسله الى (كتاب) صغير على رأس الحارة ، أظهر فيه تفوقا ملحوظا ، ثم الى مسجد (الشيخ ابراهيم) القريب ليتلقى فيه بعض دروس اللغة والدين .. على أن الفتى يبدى انصرافا عن ذلك كله ، وقد ركبته (عفرته) غريبة .. فهو فى الواقع لم يخلق لكى يتعلم شيئا بين الجدران ، متربعا على الحصير .. انما خلق

ليتأمل هذه الحياة الحقيقية التى كانت الكتب حتى ذلك الحين تترفع عن دراستها والتعرض لها .. هذه الحياة المصرية الصميمة ، التى يعيش فيها (ابن البلد) الحقيقى .. ابن البلد بذكائه الفطرى الذى عصرته الآلام فلم تبق منه غير نكتة حاضرة ، بكسله الذى أورثته إياه قرون عاشها فى بلده غريبا ، يتفرج على الغرباء الذين يحكمون .. وبأمراضه التى تسربت اليه من سنوات اليأس والجمود .. يتعاطى الحشيش للفرار الى الغيبوبة ، ولا يتباهى الا بفتوحاته مع زوجته ، وكثرة اطفاله الذين يملأون الحوارى ويأكلون التراب .. ابن البلد الذى يعيش فى كل هذه القمامة .. ينتظر الهزة العنيفة التى تطردها عنه ..

ويضيق الاب بهذا الفتى الشارد اللب . الذى يترك الدراسة فى المسجد ليتفرج على المقاهى ، ويقف عند المشاجرات ، ويتابع الادباتية ، ويشترك فى (قعدات) الحشيش .. ولا يعود ألا بمحصول من القوافى ، والازجال ، والسخريات ، والنكت البذيئة .. شارد دائما متصعلك أبدا ، كأنه يبحث عن شىء نادر . ضائع يريد أن يلتقطه ، من طين الحياة ..

ويقول له أبوه : اخرج .. لتكسب رزقك ..

ويترك الفتى الاسكندرية كلها .. ويبدأ حياة غريبة من السياحة والمشاهدة والخبرة ، حياة لم يخترها لنفسه ، ولم يكرهها لنفسه .. انما مضى معها مدفوعا بسليقته ليعود آخر الامر مزودا بمعرفة عميقة لهذا الشعب لم يدركها أحد مثله قط .. وليصبح هو نفسه مخلوقا غريبا مركبا من كل ما فى هذا الشعب من قوة ، وضعف !

ذهب الى القاهرة ليعمل فى وظيفة (تلغرافجى) فى القصر العالى الذى كان يقوم فى جاردن سيتى وتسكنه والدة الخديوى اسماعيل .. فانتقل ــ فجاة ــ من

حوارى حى الجمرك الى ردهات قصر اسماعيل .. من مجتمع أبناء البلد وعمال البحر والحشاشين والنساء المكدودات الى عالم الامراء والاغوات والمحظيات . ولكن (ابن البلد) الذى تعود جر قدميه فى طين الحارات اللزج ينزلق على بلاط القصور الاملس .. فهو سرعان ما يخطىء ، ويتشاجر مع خليل أغا رئيس اغوات القصر .. فيجتمع عليه الاغوات يضربونه ضربا مبرحا ..

ويطرد ابن البلد من القصر !

- وهو يصنع كالمثقفين المفلسين فى اوروبا فى القرن الثامن عشر حين كانوا يتكسبون بتعليم أبناء الامراء ! .. فهو يذهب الى عمدة من عمد الدقهلية كى يسكن عنده ويأكل من خيره ويعلم له اولاده .. ولكنه يختلف مع العمدة على الاجر ، وتهزمه طبيعته الفنية الناشئة فينشد فى العمدة هجاء مقذعا .. ويطرده العمدة ..

- ثم هو يجرب التجارة .. فيفتح دكانا فى المنصورة يبيع فيها الخردوات .. ولكن باب الدكان تزدحم حوله المقاعد ، ويتجمع عليها المتأدبون والسمار والذين سمعوا عن خفة دم بائع الخردوات .. ومرة اخرى تهزمه طبيعته الفنية ، فهو منصرف عن البيع والشراء ، مقبل على انشاد الشعر واطلاق النكتة والمساجلات .. ويفلس الدكان !

- وهو يذهب فى مولد السيد البدوى الى طنطا .. ويكون جالسا متبطلا على احد المقاهى حين يمر بها (أدباتى) محترف بطبلته وطرطوره ووجهه المدهون بالجير .. ويتجه الادباتى الى النديم منشدا :

انعم بقرشك يا جندى والا اكسينا أمال يا أفندى
احسن أنا وحياتك عندى بقى لى شهرين طوال جعان !

وتتحرك فى النديم طبيعته فيرد عليه مرتجلا :

أما الفلوس .. انا مديشى   وأن قلت لى : انا ما مشيشى
يــــطــــع على حشــــيشى   أقوم أملص لك لودان !

وتتصل بينهما مبارزة ينهزم بعدها الادباتى امام الاستاذ ، فينصرف ..

وتصل هذه القصة الى مسامع شاهين باشا كنج مفتش الوجه البحرى ـ وكان من هواة ومشجعى أدب (الادباتية !) ـ فيضحك كثيرا ، ويدعو النديم الى مساجلة عنيفة بينه وبين كبار الادباتية والزجالين .. تعقد المساجلة فى سرادق كبير يقام لذلك خصيصا ، ويخرج منها ، النديم ، الادباتى الهاوى ، فائزا على المحترفين !

على أن هذه الصعلكة تذهب عنه حين يعرف الطريق الى قهوة (متاتيا) فى القاهرة ، فى ميدان العتبة الخضراء .. اذ يرى (جمال الدين الافغانى) جالسا هناك كل مساء «يوزع السعوط [1] بيمناه ، والثورة بيسراه !» وقد جلس حوله عشرة أو عشرون من التلاميذ .. هذان المتجاوران سوريان قد حملا الى مصر بعض بذور الثقافة الحديثة : أديب أسحق وسليم النقاش .. وهذا الرجل المفتول الشوارب هو سامى البارودى الذى سيلعب دورا رئيسيا فى الثورة العرابية بعد سنوات ، وهذا الشيخ الشاب القصير هو محمد عبده .. أما هذا الطالب الازهرى الطويل القامة ، فاسمه سعد زغلول .. سيقود ثورة اخرى بعد عشرات السنين . فى سنة ١٩١٩ .. وسيصبح اول رئيس وزارة ينتخبه الشعب ..

ولا يمكن أن يكون النديم قد عرف الطريق الى قهوة متاتيا وهو مجرد أدباتى .. لأنه لا يمكن أن يستسيغ مجرد أدباتى تلك الجلسة الجادة الصارمة التى لا لهو فيها .. أذن فهو قد أرتفع بنفسه قبل ذلك عن مستوى الأدباء الذين يشبهون الأدباتية إلى

(١) النشوق .

مستوى الأديب ذى الرسالة .. أذن فهو لم يكن ينظر إلى مصير أبناء هذا الشعب نظرة استسلام ولم يكن يضحك منهم ضحكة بلهاء .. ولكنه كان ينظر إليهم نظرة عامرة بالامل ويضحك منهم ضحكة مترعة بالنقد ..

هذا ـ اخيرا ـ هو الجو الذى يبحث عنه النديم .. فمن هذا المقهى الصغير تهب ريح الثورات المقبلة ، وعلى هذه المقاعد البالية يجلس أبطالها ، لا يعرفون بعد ما سيفعلون . وهذا الرجل الأفغانى العجيب لا ينقطع عن شرب (الشيشة) ، وينفث مع الدخان كلاما صاعقا تغلى له الدماء وتنفر العروق «انكم معشر المصريين قد نشأتم على الاستعباد ، وتربيتم فى حجر الاستبداد .. لقد تناوبتكم أيدى الغاصبين من الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب والاكراد والمماليك .. وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، ويهيض عظامكم بأداة عسفه .. ويستنزف قوام حياتكم ـ التى تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم ـ بالعصا والمقرعة والسوط . وأنتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة لا حس لكم ولا صوت .. انظروا اهرام مصر وهياكل ممفيس وآثار طيبة وحصون دمياط شاهدة بمنعة آبائكم وأجدادكم ! هبوا من غفلتكم .. واصحوا من سكرتكم .. عيشوا كباقى الامم أحرارا ، أو موتوا مأجورين شهداء ! »

و ... «انت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الارض لتستنبت ما يسد الرمق ويقوم بأود العيال .. لماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون أتعابك ؟ ! »

اه .. هذا هو الكلام !

أن مشاكل الناس التى لم ينقطع النديم لحظة واحدة عن التفكير فيها .. وصور الحياة التعسة التى رآها هذا المصرى الحقيقى فى انحاء وطنه .. الفقر فى الريف والجهل

فى الحوارى والفساد فى القصور .. كل ذلك له سبب كبير ، رئيسى ، يرشده اليه الفيلسوف الافغانى : انه الاستبداد الاجنبي والمحلى !

والعلاج ؟ ..

الثورة ! !

ويهدأ القلق فى قلب النديم ويتبدد الضياع ، ويعود ينظر الى الامور على هذا الضوء الجديد .. ويسأل نفسه : كيف نزل كل هذا البلاء بوطنه ؟ ..

لقد كانت تلك السنوات التى قضاها عبد الله النديم فى الصعلكة والتأمل سنوات خطيرة رهيبة فى تاريخ مصر ..

لكأن كل القوى قد اختارت هذه الارض ميدانا لمعركة عالمية ، حددت تاريخ هذا الركن من العالم لقرن بأكمله ..

كان الاستعمار فى عنفوانه يزخر بأحلام التوسع ، ويسكب أمواله فى مصر كالسيل المنهمر .

وكان الاستبداد المحلى فى مصر يتمثل فى عرش الخديوى وأسرته وطبقته اللائذين به ، يفتحون أيديهم وأفواههم لهذا الذهب ، ولا يجدون مانعا من اقتسام البلد مع الغرباء الوافدين .

وكان الثائرون فى كل انحاء الشرق الاوسط يهاجرون بعقائدهم من الاستبداد التركى ، ويتخذون مصر أرضا لكفاحهم وللتعبير عن آرائهم .

وكان شعب مصر نفسه يتأمل كل هذه الدوامات ، والدهشة فى رأسه أكثر من الفهم .. شأن من يستيقظ من نوم طويل على أحداث لم تطف بأحلامه قط ! .

كان التاريخ يدق أبواب مصر بشدة لم يسبق لها مثيل ، وهذه القوى المتضاربة المتقاتلة تقلب الحياة المصرية كما يقلب المحراث بطن الارض ..

ثم جاء الرجل الملائم لكل هذه التيارات ، لانه يحلم ولا يفكر .
وجلس اسماعيل على عرش مصر وعبد الله النديم ما زال يافعا فى الثامنة عشرة من عمره .. وقال : أريد أن تكون بلادى قطعة من أوروبا . ولكن ، بدلا من أن تذهب مصر الى أوروبا ، جاءت أوروبا الى مصر ! جاءت اليها فى صورة أموال أجنبية ، وموظفين وخبراء .. «كان الواحد منهم يأتى فقيرا مفلسا ، فلا يكاد يأوى قليلا فى قاعات الانتظار بقصر عابدين حتى يصبح طفرة من أصحاب الملايين ! » ..

فلم يكن اسماعيل اذن هو الذى دعا اليه هذه الاموال . لانه لا يكفى أن يقول لهذه الاموال : هيا .. فتجىء ! . ولكن هذه الاموال هى التى كانت تسعى الى دخول مصر سعيا حثيثا ، لم ينقطع منذ أطلق نابليون مدافعه فى صحراء الهرم الساكنة عند أبى الهول ! .. تريد أن تستولى على هذه الارض ذات الخيرات العجيبة ، والموقع الجغرافى الهام ..

وأقرا ـ لكى تصدق ـ تصريح بالمرستون الخبيث ، وزير خارجية انجلترا فى ذلك الوقت ، «اننا لا نريد ان نحكم مصر .. نريد فقط أن نتاجر معها . فلنعمل على «اصلاح» هذه البلاد بنفوذنا «التجارى» العام» .

وانظر الى سفير انجلترا فى استانبول «هنرى اليوت» .. يشرح لحكومته كيف يمكن اغراء اسماعيل بالاقتراض : «أن ما ناله الوالى من حرية مطلقة فى شؤون مصر الداخلية لا قيمة له اذا لم تطلق له حرية الاقتراض من الاسواق الاجنبية للحصول على الاموال التى يحتاج اليها فى المشروعات النافعة لتنمية موارد بلاده العجيبة ! » .

والمرابون .. اصحاب رؤوس الاموال الاجانب الذين تهاطلوا كالمطر .. من تلقاء انفسهم . اقرأ وصف البارون فون ملورنى ـ أحد رجال السلك السياسى الاجنبى ـ لهم : « .. كنت ترى حجرات الوزراء غاصة بالدائنين الذين جاءوا يتذللون لكى يقدموا اليه ملايين الجنيهات بفوائد باهظة تحرمها قوانين العقوبات فى بلادهم ! . ولما مرت السنون وضاق الحال بالحكومة انقلبوا يهددونه بالوقاحة التى نعهدها فى الدائنين اذا أفلس مدينوهم ! » ..

الخبراء الاجانب ؟ .. هذا مراسل « التيمس » فى القاهرة يرسل الى جريدته فى يناير ١٨٧٩ قائلا : «أن أكثر كبار الموظفين من الاجانب .. ويظهر أن المرتبات الضخمة لا بد منها لتخفيف حنينهم الى أوطانهم وقد أصبح فى مصر الآن عدد كبير من الموظفين ذوى المرتبات الضخمة الذين لا عمل لهم سوى تناول مرتباتهم ! » .. ومراسل التيمس فى الاسكندرية يقول « مما يلهو به الزوار ويتهكمون أن يحصوا الموظفين الاوروبيين القاعدين ، الذين يتقاضون آلاف الجنيهات فى الوقت الذى لا يستطيع فيه مئات من موظفى الحكومة الوطنيين الحصول على مرتبات قليلة متأخرة من العام الماضى ! » .

وكم مليونا اقترض اسماعيل ! ١٢٦ مليونا ! .. وهو رقم خرافى اذا عرفنا ان ميزانية مصر كلها كانت فى ذلك الوقت سبعة ملايين ونصف ! .. فنسبة الـ ١٢٦ مليونا الى ميزانية مصر فى ذلك الوقت يقابلها ـ الى ميزانية مصر الان ـ ما يقرب من ٥٠٠٠ مليون .

ولم يصنع اسماعيل بهذا المال معجزة ، ولا أصبح الناس فى مصر اغنياء .. ذلك أن ما انفق من هذه الاموال فى شق الترع واقامة المصانع كان أقل مما انفق فى اقامة القصور وأفراح الانجال ! واتسم العصر كله بطابع الاسراف الشديد ، الذى اتجهت

اليه الطبقة الغنية بكل قوتها ، تريد أن تقتدى بالاغنياء الاوروبيين فى متعهم وأسلوب حياتهم .. شق اسماعيل شوارع النزهة واقام الكبارى الجميلة على النيل ، وبنى فى سرعة غريبة مسرحا للاوبرا ، واشترى من فردى اوبرا «عايدة» . وعرفت القصور المآدب الكبيرة والحفلات الراقصة والسهرات الحافلة وارتفعت قيمة الموسيقى والغناء وظهر المطربون الكبار مثل عبده الحامولى و «المظ» ! ..

وكان ثمن هذا كله يؤخذ من الفلاحين فى صورة ضرائب أو من الاجانب فى صورة قروض .. يدفع فوائدها الفلاحون ايضًا ! ولم يكن غريبا بعد هذا أن يسجل المعاصرون انه فى سنة ١٨٧٨ ـ والرخاء والاسراف فى الطبقة الغنية على أشده ـ «انتابت اهل الصعيد سنة شديدة لم يسمع بمثلها منذ اجيال مضت . فكنت ترى الاطفال والنساء هائمين على وجوههم متنقلين من قرية الى قرية يستجدون الاكف ليدرأوا غائلة الجوع . وكثيرا ما حملتهم شدة المسغبة على ان يقتاتوا بفضلات الطعام وقمامة الشوارع ! » ..

ولم يكن ممكنا أن يسكت المصريون بعد ! .. لم يكن ممكنا أن يسكت العمد والاعيان فى الريف وهم يرون فلاحيهم يهلكون ، والحكومة تنتزع منهم الضرائب لتنفق على سفاهاتها ، ولا أن يسكت المثقفون الذين أخرجتهم المدارس العليا وهم يرون مناصب الدولة يتولاها الانجليز والفرنسيون .. او الاتراك ! .. ولا أن يسكت تجار المدن وهم يرون الشوارع التى كانت مكتظة بدكاكين أرباب الصناعات والحرف من غزالين وخياطين وصانعى احذية وصاغة تختفى وتقوم على اطلالها دكاكين مملوءة بالبضائع الاوروبية ! ..

بدا المصريون اذن ينتبهون . وأخذ الفهم يتسلل الى رؤوسهم المثقلة بالدهشة . وبدأوا يصنعون اشياء جديدة عليهم ..

ظهرت جمعية ادبية اسمها «جمعية المعارف» من كبار الموظفين والاعيان اخذت على عاتقها اعادة طبع التراث القديم : «تاريخ ابن خلدون» و «أحياء العلوم» للغزالى .. و «الاغانى» و «نفح الطيب !» ..

وظهرت المطابع الاهلية : «المطبعة الوطنية» فى الاسكندرية و «المطبعة القبطية» فى بولاق .. ومطبعة «وادى النيل» .

وبدا «محمد بك عثمان جلال» يترجم القصص الغربية .. بل ويمصر بعضها ، كما فعل بمسرحية «طرطوف» لموليير اذ عربها باسم «الشيخ متلوف !» ..

وبدأت فرق التمثيل تجئ من سوزيا ولبنان لتمثل على مسرح الاوبرا ومسرح الازبكية .. فلما مثل «يوسف خياط» مع فرقته رواية «المظلوم» على مسرح الاوبرا .. رحب به اسماعيل اول الامر ، لانه يريد ان تكون فى مصر فرق تمثيلية .. فلما شهد روايتها ووجد انها تشتم الظلم والظالمين طردها من مصر..

وظهرت الصحافة السياسية والمعارضة لاول مرة ..

ظهرت «وادى النيل» لصاحبها عبد الله افندى ابو السعود .. ثم اغلقت بعد ست سنوات .

وظهرت «نزهة الافكار» لصاحبيها ابراهيم المويلحى وعثمان جلال .. ليغلقها اسماعيل بعد عددين ..

وظهرت «الوطن» و «مصر» و «التجارة» و «الاخبار» و «الكوكب الشرقى» و «الاهرام» ..

وفر احد الصحفيين ــ يعقوب صنوع ــ الى باريس ليوالى اصدار جريدة «ابو نضارة» .. وليدخل الكاريكاتير على يديه لاول مرة فى الصحافة المصرية ..

ولتتسرب هذه الصور الى مصر كل اسبوع ..

وتمخض هذا التطور عن ظهور الدعوة الى انشاء مجلس نيابي ينتخبه الناس ويشارك الحكومة مسؤولية الحكم . لقد وجد المصريون انهم منذ نصف قرن تقريبا اختاروا محمد على حاكما عليهم ، وأجلسوه على العرش رغم انف الباب العالى ، فكان اول عمل له أن نفى زعماء الشعب . اذن فاختيار الحاكم مرة ليس يكفى ! .. اذن فلا بد من ان يظل الشعب بعد ذلك رقيبا ، يجب أن تستمر رقابة الشعب على الحاكم حتى لا يطغى .. وما هى وسيلة الرقابة ؟

البرلمان ..

ولم يعارض اسماعيل التيار المطالب بمجلس نيابى . وقد رأى ان الامر لا يعدو مظهرا آخر يكمل سائر مظاهر أبهته ! .. انه كما انشأ كوبرى قصر النيل ، واقام دار الاوبرا ، ينشىء مجلسا نيابيا .. يقف فيه كملوك الغرب يفتتح ، ويخطب ويحف به الوزراء ..

وانشأ اسماعيل مجلسا نيابيا «استشاريا» لا يبدى رأيه الا «فيما يعرض عليه من الامور» فقط ! .. وأجريت الانتخابات الاولى سنة ١٨١٦ . ولم يكذب المجلس الاول ظن الخديوى ــ ولا الاجانب ــ اذ جاء رده على خطاب العرش حافلا بالسجع والمذلة ، يقول انه قد «نفحتنا النفحات الالهية ، وأسعفتنا العناية الربانية ، بالحضرة الاسماعيلية ! وأعطى القوس باريها ، لطفا من الله بهذه الديار ومن فيها ، فتولاها العزيز بن العزيز ، ذلك الجناب الافخم ..» ويشكر الخديوى على انه انشأ «هذا المجلس الانيق ! !» نعم .. فقد كانت الاناقة غاية العصر ! ..

هذا اذن العصر الذى انضج عبد الله النديم . وهذا هو الجو يوم عرف الطريق لاول مرة الى قهوة متاتيا ، وجلس امام هذا الرجل الافغانى العجيب .. بوجهه

الاسمر الجذاب ، و «جبته» وسراويله السوداء .. الذى يأكل مرة واحدة فى اليوم ، ويسهر فى القهوة الى الفجر ، وينام حتى الضحى ، يشرب الشاى والشيشة باسراف و «يوزع السعوط بيمناه ، والثورة بيسراه» ..

هنا .. على هذه المقاعد البالية عرف كل الشخصيات التى تكمن فيها عوامل الانفجارات المقبلة .. عرف ذلك الفريق الضخم المتزايد من الباشاوات والتجار والاعيان والمثقفين ، الذين كان يطلق عليهم اسم «الحزب الوطنى» ، واطلع على خبايا الجمعيات السرية التى كانت توزع المنشورات .. وصادق الصحفيين الذين ينفثون السخط ويوجهون الرأى . فهو يعود هذه المرة الى مسقط رأسه فى الاسكندرية لا ضائعا ولا متصعلكا ، بل ليعمل فى جريدتى «الوطن» و «التجارة» اللتين كان يصدرهما سليم نقاش وأديب أسحق ..

وفى هذه الاثناء تقوى حركة المقاومة وتشتد .. والنواب الذين تحدثوا منذ سنوات عن «العناية الربانية» ... والحضرة الاسماعيلية ! » يردون على خطاب العرش سنة ١٨٧٩ قائلين مسجلين : «نحن نواب الامة المصرية ووكلاءها . المدافعين عن حقوقها ، الطالبين لمصلحتها ! » ثم يورطون الخديوى فيشكرونه على تشكيله مجلس وزارة «مسؤول امام الامة ! » و «حفظا لمصلحة الحكومة وحقوق الرعية ! » ..

وبعد اسبوعين ، تتهرب الحكومة ، كالعادة ، من عرض المسائل المالية على مجلس النواب . فيقف محمود بك العطار (شاهبندر التجار) فى المجلس مهاجما رئيس الوزارة «نوبار باشا» : «كيف يخفى على دولتلو رئيس النظارة أن للامة المصرية نوابا ؟ .. كيف تضيع تلك الحقوق فى عهد تؤمل الامة فيه نوال كمال حريتها وغاية حقوقها ؟» ..

ويرد نوبار ردا ملتويا ، فيجيبه النائب عبد السلام المويلحى «أن كل مملكة وكل حكومة تقدمت كان أساسها اشتراك النواب فى أمثال ذلك» .

وتتحمس الصحف لهذا الاسلوب الجديد . وتؤيد اول معارضة علنية للحكام فى مصر.. وتسقط وزارة نوبار باشا ، ويؤلف الامير توفيق ولى العهد وزارة جديدة . ولكن المقاومة تشتد . وقد اتجه الرأى بين المصريين نهائيا الى ضرورة وضع دستور جديد وتغيير نظام مجلس النواب بحيث تصبح له سلطة حقيقية ..

ويجتمع النواب والزعماء جميعا فى دار السيد البكرى نقيب الاشراف ، وتطلق الصحف على الاجتماع اسم «الجمعية الوطنية» تشبيها له بالجمعية الوطنية التى تزعمت الثورة الفرنسية .. وطالبت «الجمعية الوطنية» بتأليف وزارة وطنية يخرج منها الوزيران الاجنبيان ، وتسوية الديون تسوية معقولة ، وانشاء نظام دستورى ومجلس نيابى ..

واحتجت الدول الاجنبية على وضع دستور البلاد ! . ولكن وزارة توفيق بالرغم من ذلك سقطت ، والف شريف باشا وزارة وطنية ، وانطلقت الوزارة والنواب يضعون ما أصبح اول دستور حديث عرفته مصر ، وقدمه الشعب الى الخديوى فى ٣ يونية سنة ١٨٧٩ ..

وفى ٢٦ يونيو ـ بعد ٢٤ يوما فقط من انجاز الدستور ، وقبل ان يصدر به المرسوم ـ خلعت انجلترا وفرنسا اسماعيل عن عرش مصر ، عقابا له على هذه الاستجابة الاخيرة لضغط الشعب ! ..

الى هذا الحد لم تصبر انجلترا التى تعمل لاستعمار مصر .. لم تصبر على أن يكون لمصر دستور ، ولا على أن يكون الحكم فى مصر للمصريين .. ذلك انها تعرف العاقبة جيدا ! ! ..

ولم يكد توفيق يستقر على مقعده حتى استدعى اليه فى القصر جمال الدين الافغانى الذى كان مسؤولا عن هذه المقاومة كلها الى حد بعيد ، وسأله الرأى .. فقال له الفيلسوف : «ان قبلتم نصحى .. أسرعتم الى اشراك الامة فى حكم البلاد عن طريق الشورى ، فتأمرون بأجراء انتخابات نواب عن الامة تسن القوانين وتنفذها» .

ويرفض توفيق ـ طبعا ـ بمشورة من الانجليز ، فحكم الشعب الحقيقى معناه طرد المتطفلين وحصر نشاط الاجانب فى النطاق المشروع ! .. وينشئ الافغانى اول حزب فى مصر : الحزب الوطنى الحر .. حزب سرى يوزع المنشورات ويدعو الى حكم الشعب نفسه بنفسه .. ويدخل النديم هذا الحزب الاول مع الآخرين .. من الكبار مثل شريف باشا وسلطان باشا الى الصغار مثل سعد زغلول .. وتطارد الحكومة المنشورات .. وينهض الافغانى آخر ليلة من لياليه ، تاركا قهوة متاتيا عائدا الى بيته وليس معه سوى خادمه «ابو نراب» .. وفى الطريق المظلم يعترضه الجنود ، ويقبضون عليه ، ويسوقونه الى «الحجز» ويبيت ليلة على البلاط مع اللصوص والساقطين ، وفى الصباح يوضع فى عربة مقفلة الى محطة السكك الحديدية ، ثم الى السويس منفيا من مصر .. لم يذهب الى بيته ولم يجمع ثيابه .. وصدر فى الصباح بلاغ يبرر نفيه بأنه «رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا !!» .

ويتمزق الحزب .. ويعود النديم الى جمعية سرية اخرى اسمها «مصر الفتاة» يعمل فيها زمنا .. ثم هو ينشئ جمعية علنية يسميها «الجمعية الخيرية الاسلامية» وينشىء للجمعية مدرسة ..

وفى المدرسة يبذل نشاطا عجيبا .. هو يعلم الطلبة الخطابة والالقاء .. ويعقد

لذلك الحفلات التى تزدحم بأهالى المدينة ، يقوم فيها خطيبا ويتعاقب بعده تلاميذه . ثم يؤلف روايات تمثيلية يمثلها مع تلاميذه على مسرح «زيزينيا» منها رواية «الوطن» ورواية «العرب» ..

ولكن الجمعية تنشق ، ويجتمع الاعضاء ويفصلون النديم ، لا سباب مجهولة التفاصيل . فماذا يصنع ؟ ..

يصدر مجلة ..

الان يبدأ تاريخه الحقيقى .. وقد اصبح رجلا فى السادسة والثلاثين .. رجلا اكتمل له فهم الشعب المصرى كما لم يفهمه أحد قط : خدم فى القصور الملكية وعند عمد الارياف . مارس التجارة وساجل الادباتية .. عرف غرز الحشيش ومجالس الفلاسفة . عمل فى الصحافة ، وفى الجمعيات السرية . وقف على المنبر خطيبا وعلى خشبة المسرح ممثلا .. ونفسه الحساسة الذكية لا تترك شاردة .. ففى هذا الكيان تنبض مشاعر شعب .. الشعب كما رآه النديم من زاويته الحقيقية : عماله وفلاحوه وشبابه المثقف .. لا كما كان يراه الناس : باشوات وأتراكا وشراكسة ..

وبكل هذا الفهم ، وبكل هذا الاحساس ، يصدر مجلة يسميها : «التنكيت والتبكيت» .. والاسم هو أول توفيق فيها : فمن زاوية الفكاهة والسخرية اذن سيشير الى العيوب والادواء .. باسلوب «التنكيت» القريب من قلوب المصريين ، سيصل النديم الى «تبكيتهم» وتأنيبهم وايقاظهم ..

هذه المجلة ، مجلة فريدة فى تاريخ الصحافة المصرية كلها . ولنستعرض العدد الاول منها مثلا .. أن فيه مقالات وقصصا للخاصة مكتوبة باللغة العربية الفصيحة ، وفيه قصصا باللغة العامية للاخرين القريبين من قلب النديم .. وأسلوبه

فى معالجة كل المشاكل أسلوب قصصى . وهذا توفيق آخر فى الاقتراب الى افهام العامة وأبناء الشوارع والحوارى ..

ولكن .. أن تقديم نماذج من مواضيعها أبلغ من كل بيان :

اليك قصة بعنوان « الجنون فنون » يندد فيها بصورة من الصور التى كانت شائعة فى مصر : شعراء الربابة الذين كانوا يطوفون بالمقاهى ويروون قصص حروب « عنتر بن شداد » ضد « الزغبى » ويصرفون الشعب عن مشاكله الواقعية بما يروونه من قصص خرافية ..

يقول النديم بالنص :

« جلس احد المحتالين على قهوة ، وأخذ يقرأ أكاذيب سماها « قصة عنترة » ، فاجتمع عليه عدد كبير من الرعاع والهمج الذين أولعوا بسماع الاكاذيب والخرافات . فلما رآهم منصتين اليه اخذ يفترى عبارات ينسبها الى عنترة وكلمات يعزوها الى « زغبة » ، وقد انقسم القوم فريقين ، وكل فريق يدفع لهذا المحتال نقودا ليؤيد مشربه ويمتدح بمن يميل اليه . والمحتال مجد فى التخريف متفنن فى الكذب ، حتى قرب الفجر ، فقال : « وبينما هم فى قتال ونزال ، انكشف الغبار عن أسر عنترة ، وسنخلصه فى الليلة المقبلة » .

فقال احد السامعين : لابد ان نخلصه الان ! .. وخذ عشرة جنيهات ! ..

فابى المحتال وسكت عن الكلام ، فشتمه السامع وعلت أصواتهما بالقبائح ، وآل الامر الى الضرب والاهانة ..

ثم ذهب السامع وقد تذكر أن عنده قصة عنترة ، ولكنه أمى لا يقرأ ، فقصد الى غرفة ولده وأيقظه من النوم وهو يبكى وقال له : يا ولدى ، أبوك رزئ بمصيبة عظيمة .

فقال له ولده : هل مات اخى ؟ ..

ـ كان أهون .

ـ هل صدر عليك حكم بالليمان فى قضيتك ؟ .

ـ كان أهون .

ـ أسرقت نقودك ؟ .

ـ كان أهون .

ـ فما الذى أصابك يا والدى ؟ .

ـ يا ولدى ، فى هذه الليلة أخذوا عنترة اسيرا ، فهات كتاب قصة عنترة وخلصه .. والا قتلت نفسى .

ـ من عنترة يا والدى ؟ .. أتتكدر على حكاية مكذوبة وقصة كلها تخريف ؟ ومالنا وعنترة ؟ ان هو الا عبد أسود اخذ شهرة مما صنعه من الشعر وقتل بعض الناس بلا حق لولوعه بالنهب .

فقال الوالد : انت تشتم عنترة يا ابن الـ ..

ونزل عليه بعصاه حتى أسال دمه ، وحلف عليه بالطلاق لا يبيت عنده ولا يعاشره .. فخرج الولد المسكين وهو يسب الجهل وأهله ، ويعجب من فساد أخلاق والده الذى أحدثه عدم التهذيب حتى الحقه بالبهائم وسلخ عنه جلد الانسانية .

فقابله احد جيرانه وسأله عن حاله ، فقص عليه قصته مع والده .

فقال له : طالما قلت لا بيك « فضك » من عنترة وتعال أعمل « زغبى » فما سمع كلامى .

فضحك الولد من سخافة عقل الاثنين ، وقال : لا شك أن « الجنون فنون » .

هذه القصة الفكهة ، أو النكتة الطويلة ، تعطى صورة كاريكاتورية رائعة لجو مقهى مصرى فى ذلك العصر ، ودعوة لاذعة الى رواد المقهى لكى يتنبهوا ويتركوا هذا اللغو والضياع .

ثم قصة اخرى أشد تقريعا فى نفس العدد ، عن انتشار الحشيش ، عنوانها «سهرة الانطاع» .. وقد ابتكر فيها النديم شخصية كشخصيات «المصرى افندى» وغيرها .. شخصية استعملها فى قصص كثيرة وسمى صاحبها «المهذب» .. قال :

«دخل احد المهذبين بيتا من بيوت رجال الملاهى فوجد عشرة من الرجال جالسين على الاسرة ، مبهوتين ساكتين ، لا يتكلمون ولا يتحركون ولا يرفعون أبصارهم .. هذا واضع عنقه على كتفه ، وذا «مكفى» على المخدة ، وذاك يتمايل كالنائم ، وآخر واضع يده على خديه .. فظن المهذب أن رب الدار أصيب بمصيبة وهؤلاء متكدرون مما أصابه مشفقون عليه ، فجلس فى ناحية من المجلس وسأل رب الدار قائلا : لعلكم بخير .. هل من امر نزل بالسيد حفظه الله ؟

قال : لا .. ولكن عادتنا ان نجتمع كل ليلة للانس والمفاكهة .

المهذب : اظنكم تتذاكرون فى تقدم صنائع أوروبا وانتشار تجارتها فى سائر الاقطار حتى عظمت ثروتها وتقوت شوكتها ؟

رب الدار : مالنا علم بأوروبا ولا بأهلها .. فاننا ما خرجنا من مصر مدة حياتنا .

المهذب : عدم الخروج من البلاد ليس شرطا فى وقوف الانسان على احاديث الامم ونحن جلوس فى بيوتنا .

رب الدار : التواريخ لا يقرأها الا العلماء والصحف لا يسال عنها الا

الخواجات ، فانها عبارة عن حكاية يتسلى بها الشبان .

المهذب : الصحف يا سيدى ألسنة الامم وترجمان الملوك . تنقل لك ما قاله هذا الرئيس وهو فى اقصى الغرب وما أجاب به هذا الامير وهو فى اطراف الشرق .. وتخبرك بالمحاورات السياسية وأغراض الملوك وأحوال الامم وسير التجارة ، وأعمال العقلاء وصنائع العلماء وخطب النبهاء وتاريخ الاذكياء .. وما قامت به هذه الامة حتى خاتلها الغريب وتداخل فى شأنها وحجر على اهلها عوائدهم ومذاهبهم .

رب الدار : هذا شىء يوجب وجع الدماغ ويشتت الفكر ولا يشتغل به الا من ليس له شغل .

المهذب : أظنكم اذن تتحدثون فى شؤونكم وتتذاكرون فى أشغالكم ، لعلكم تهتدون لامر يزيد فى الثروة اكثر مما أنتم عليه ، لتفاخر بكم حكومتكم وتكافئكم على أتعابكم واجتهادكم بالرتب العالية والعلامات الشريفة .

رب الدار : هذا أمر لا يهمنا ، فان البلاد اذا تقدمت او تأخرت لا تفيدنا شيئا احسن مما نحن فيه .

المهذب : وما هو الذى وصلتم اليه يا سيدى من التقدم ؟

رب الدار : لله الحمد .. كل منا له بيت عظيم بحوش واسع ومضيفة لطيفة .. وعنده من الخدم ما يقوم بادارة اشغاله . وقد ترك لنا آباؤنا أموالا لا تفنيها الايام .. فنحن فى نعمة عظيمة .. ترى المسكين من الناس يقوم فى الفجر لا شغاله ، ويبيت ويكتب ويحسب ، ونحن لا نخرج من البيوت الا قبل الظهر ونعود اليها وقت العصر للمسامرة والضحكات والنكات اللطيفة .

والمهذب : اذا كانت هذه عادتكم ، فَلِمَ تجتمعون فى هذه السهرة ؟

رب الدار : عادة «الكيف» انه لا يفرح الا اذا تعاطاه الانسان فى مجلس انس يضحك ويلعب .. فنحن نجتمع ليتعاطى كل منا «منزوله» ثم تدور النكتة بيننا . فاذا «وثن» الانسان و «خدر» قام ودخل محل النوم حسب العادة ، فيبيت مبسوطا لا يسأل عن الدنيا ولا من فيها .

ثم التفت الى اقربائه وقال : رأيكم ايه يا أسيادنا فى هذه العبارة ؟

فاجاب الجميع بصوت واحد : مفيش غير كده ! احنا مالنا ومال الدنيا والتجارة والتواريخ .. احنا رايحين نبقى زى الافرنج اللى كل ساعة يقولوا الدنيا جرى فيها ايه .. والجرانيل قالت ايه .. والتلغرافات عادت أيه .. زى اللى الدنيا ملكهم .. ها ها هع !!! ..»

على أن أروع ما فى هذا العدد الاول من مجلة «التنكيت» قصة بعنوان «مجلس طبي لمصاب بالافرنجى» . أراد النديم أن يروى فيها قصة مصر التى فتحت أبوابها للمرابين فافتقرت وافلست ، فاضطرت للاستغاثة بالفنيين الأجانب والوصاية الاوروبية على الميزانية المصرية مما زاد فى مرضها وافلاسها .. ولم يكن مباحا للصحف ان تقول ذلك بصراحة ، فروى قصة رمزية عن شاب قوى جميل ذكى كان فى منعة من أهله وذويه ، ثم تسلل اليه محتال تظاهر بالتقى والنية الطيبة حتى استولى على مشاعره ، ثم اخذ يغريه بالنساء ويعرض عليه الغوانى الجميلات حتى وقع فى الخطيئة ، ثم أسرف فيها حتى أصيب بمرض «خبيث» فضعف وهزل ومرض .. والتف حوله الاطباء يبحثون له عن علاج .. وملا القصة اشارات الى حقيقة الموقف فى مصر ..

وقد ساعده على ذلك أن مرض «الزهرى» كان عامة الناس يسمونه فى ذلك الوقت «الافرنجى !»

والى جانب ذلك مجموعة اخرى من القصص .. قصة عن المصرى الذى يسافر الى اوروبا فيعود متنكرا لاهله واصله ولغته . وقصة عن الاغنياء الذين يقتنون الكتب للتظاهر لا للقراءة ..

هذه المجلة عمل نادر فى تاريخ الصحافة المصرية ! .. حررها من الغلاف الى الغلاف رجل واحد .. ان أى مؤرخ يريد أن يعرف شيئا عن حقيقة الحياة الشعبية فى مصر فى ذلك الوقت لن يجد وثيقة اصدق من أعداد مجلة «التنكيت والتبكيت» .. والقارئ لحكاياتها البسيطة يجد فى كل سطر خلجة من خلجات المصريين .. عامة المصريين ..

شىء آخر تدل عليه هذه المجلة : كان كل الدعاة والمفكرين فى ذلك الوقت يوجهون كلامهم وعنايتهم الى الطبقات المثقفة القادرة التى كانت تتزعم الحركات السياسية .. عبد الله النديم وحده تقريبا هو الذى كان يوجه الخطاب الى ابناء طبقته .. الذين لعبوا فى الطين اطفالا وعاشوا بقية ايامهم يكدحون ..

* * *

وفى هذه الاثناء كانت الثورة العرابية قد هبت أعاصيرها .. فشلت كل الجهود السلمية من كتابة عرائض وتوزيع منشورات واصدار صحف .. فشل كل ذلك فى ايقاف التدخل الاجنبى المتزايد . كما فشل فى اقناع الخديو توفيق باعادة الحياة النيابية كوسيلة للاصلاح المطرد المستقر .

وبالرغم من أن الناس فى مصر حتى ذلك الوقت لم يعرفوا من الحياة النيابية الا المجلس الهزيل ذى السلطات التافهة الذى انعقد فى اواخر عهد اسماعيل .. الا أن هذه التجربة كانت كافية لان يتعلقوا به ، ويصروا عليه ، فقد وجدوا ان النظام النيابى ـ مهما تكن سيئاته ونواحى نقصه ـ خير من كل انواع الاستبداد ..

وقابل توفيق هذه الدعوة المتصاعدة بالشدة .. فقد رأينا كيف نفى الافغانى .. والغى الصحف الحرة وحرم الاجتماعات .. ثم اندفع بعجلة الاستبداد الى الجيش ، فأصدر بعض القرارات التى تؤدى فى النهاية الى حرمان الضباط المصريين من الترقية وقصرها على الشراكسة والاتراك ..

واجتمع الضباط فى بيت عرابى ، وقرروا تقديم عريضة الى رياض باشا رئيس الوزراء يطلبون فيها تعديل القوانين العسكرية وزيادة قوة الجيش وتشكيل مجلس نيابى ..

وفى ٢١ يناير ١٨٨١ ، يتلقى عرابى وزميلاه عبد العال حلمى وعلى فهمى دعوة للذهاب الى ثكنات قصر النيل للتداول مع وزير الحربية فى «ترتيب الاحتفال بزفاف الاميرة جميلة هانم اخت الخديوى» .. ولا يكاد الضباط الثلاثة يجتازون باب الثكنات حتى يهجم عليهم الشراكسة يجردونهم من السلاح ، واذا بهم امام مجلس عسكرى منعقد لمحاكمتهم . وكانوا قد احتاطوا للامر فاحضروا بعض اخوانهم وقفوا فى الخارج يراقبون ، فلما عرفوا ما حدث أسرعوا الى وحداتهم ، وهب البكباشى محمد عبيد فى «الآلاى الاول» يعتقل قائده فى حجرة ، ثم يقود جنوده الى الثكنات ويحاصرها .. وفى اللحظة التى يقتحم فيها الجنود المصريون الابواب ، يقفز الضباط الشراكسة من النوافذ ، هاربين بجلودهم ، وأولهم وزير الحربية عثمان رفقى .

وخرج عثمان رفقى ، وعين البارودى وزيرا للحربية ، وسجلت الثورة اول انتصاراتها .

ومضت الايام وبلغت الثورة اوجها . وفى الساعة الرابعة عصر يوم ٨ سبتمبر وقف عرابى على رأس الجيش المصرى فى ساحة عابدين . ووقف امامه توفيق

ووراءه ثلاثة من الانجليز ، أوكلن كلفن المراقب وكوكسن قنصل انجلترا فى مصر والجنرال جولد سميث مراقب الدائرة السنية .. وتحت أبصار آلاف المواطنين الذين احتشدوا خلف الجيش .. الرجال والاولاد ، والنساء على اكتافهن الاطفال .. تحت أبصار هؤلاء جميعا دار الحوار التاريخى .

ـ ما سبب حضورك بالجيش الى هنا ؟

ـ جئنا يا مولاى نعرض عليك طلبات الجيش والامة وكلها طلبات عادلة .

ـ وماهى هذة الطلبات ؟

ـ هى اسقاط الحكومة المستبدة وتشكيل مجلس نواب على النسق الاوروبى وابلاغ الجيش الى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية والتصديق على القوانين العسكرية التى أمرتم بوضعها .

ـ كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها . وانا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى واجدادى وما انتم الا عبيد احساناتنا ! !

ـ لقد خلقنا الله احرارا ولم يخلفنا تراثا وعقارا . فوالله الذى لا إله الا هو اننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم .

ويخضع الخديوى . ويؤلف شريف باشا الوزارة . ولا يكاد يجلس فى مقعده ، حتى يتلقى عريضة عليها ١٦٠٠ توقيع للاعيان المصريين يطلبون فيها الحياة النيابية وقد استهلوا هذه العريضة التاريخية بقولهم : «لما كان لا ينتظم نظام العالم . ولا يقوم قوام الهيئة الاجتماعية الا بالعدل والحرية حتى يكون الانسان آمنا على نفسه وماله ، حرا فى افكاره وأعماله ، وهذا لا يتأتى الا بايجاد حكومة شورية عادلة .

اتخذت الممالك المتمدنة العادلة مجالس من نبهاء اهلها ، ينوبون عنها فى حفظ حقوقها .. » .

وتجرى الانتخابات فى ديسمبر من نفس السنة ..

ويسقط المجلس النيابى الجديد وزارة شريف ، ويؤلف البارودى الوزارة

ويصدر دستور الثورة العرابية فى ٧ فبراير ١٨٨٢ ، ويبدا مجلس شورى القوانين فى ممارسة عمله .

فأين النديم من هذه الدوامة الهائلة ؟ ..

انه لا يكاد يجد الجد ، وتصبح الثورة حقيقة واقعة ، حتى يغلق « التنكيت والتبكيت » فى الاسكندرية ، ويأتى الى القاهرة ويصدر فيها مجلة اخرى يختار لها عرابى اسم « الطائف » . ويندمج بسرعة شديدة فى بيئة الثورة ، وتتوثق صلته بزعمائها ، فلا يلبث ان يصبح لسانها الناطق ، وأن يحمل لقبه التاريخى : خطيب الثورة !

- فالثورة ـ منذ واقعة قصر النيل ـ قد انحصرت تماما فى الصراع حول الدستور . الوطنيون يطالبون به ويسعون لتحقيقه . ولكن العقبات كثيرة : هناك الدسائس الاجنبية ، والخديوى الذى يحرص على استبداده ، والضباط الشراكسة والاتراك ، والاموال الاوروبية القابضة على زمام الاقتصاد المصرى .. ثم هناك الخيانات ! .

فبأى شيء يواجه الزعماء هؤلاء الخصوم ؟ .

لا شيء الا أن يوقظوا الوعى العام فى مصر ويكتلوه حول الدستور والبرلمان . فهذا الوعى الشعبى هو الجدار الذى يسندون اليه ظهورهم . فمن لهذه الدعاية وليس فى البلد جهاز دعاية منظم او غير منظم ؟ .. من يقوم بالدور الخطير الذى تقوم به الان الصحافة والاذاعة والسينما جميعا ؟.. لا احد الا النديم هذا الخبير

بالمصريين .. ابن البلد الحقيق الادباتى والممثل والصحفى والخطيب .

وانطلق عبد الله النديم يعمل .

مجلته « الطائف » تفيض بالدفاع عن الدستور والدعوة الى الحياة النيابية ، وتشن الحملات الهائلة على جرائم اسماعيل وعلى النفوذ الاجنبى السياسى والاقتصادى . ولما ينعقد مجلس شورى النواب ، يرسل رئيسه محمد سلطان باشا خطابا الى ادارة المطبوعات يعلن فيه أن « الطائف » هى لسان حال النواب الوطنيين . على أن ادارة المطبوعات بالرغم من ذلك لا تجد بدا من أن تقرر تعطيل « الطائف » شهرا .. ذلك أن النديم لا يقف فى حملاته عند حد .. ففى الوقت الذى يحاول فيه الزعماء مجاملة الخديوى توفيق وعدم مجابهته بالخصام ، لا يتحرج النديم ، هذا الثورى الحقيق ، بل هذا الجمهورى فى الواقع .. لا يتحرج عن شن الحملات عليه مباشرة ، يريد الاطاحة بالعرش كله . وهو فى المسألة الداخلية لا يقف فى حملاته عند حد الدستور والحياة النيابية فقط ، ولكنه يسبق عصره ويتحدث ايضا عن العدالة الاجتماعية .. يندد بالفقر المحيط بالفلاحين ، والسخرة المهينة ، والضرب بالكرباج .. ويجتر كل ما اختزنه فى أيام صعلكته .. فاليوم يستطيع أن ينفث كل ما خامر نفسه من خواطر ، وما لذع قلبه من آلام .

ولا يمر عليه يوم الا ويلقى فيه ثلاث خطب او أربعا .. فى الشوارع والسرادقات .. فى المدن والبنادر والقرى ، ناجحا جدا مع العمال والفلاحين والبسطاء ، يفتح لهم قلبه ، ويهز أكتافهم ويعلمهم الكلمات .. مستعينا بكل تجارب حياته بينهم ، وذاكرته الحساسة التى تلتقط طباعهم وتدرك أمزجتهم .. مستخدما كل أدوات التمثيل والتهريج والالقاء . ثم هو لا يكتفى بنفسه . فيجمع

تلاميذه يعلمهم الخطابة ويجعل منهم «فرقة دعاية» لا نظير لها .. تطوف معه الاقاليم ، لتساعده فى نشر الدعوة ..

اليست هذه أول حملة دعاية .. عرفتها مصر؟ ..

وليس أدل على نشاطة العجيب ، من انه ـ مثلا ـ فى حفلة اقيمت بمناسبة صدور الدستور ، التى خمسة خطابات؟ .. ويوم اشترط شريف باشا ان يسافر عرابى وزميلاه وجنودهم الى جهات متفرقة من القطر .. واقيمت احتفالات هائلة توديعا لكل قائد مسافر مع فرقته .. ركب القطار مع فرقة عبد العال حلمى وسافر معها الى دمياط . وفى كل محطة يقف القطار ويتجمع الناس ويلقى فيهم عبد الله النديم خطابا طويلا ، ويردد على اسماع الفلاحين لاول مرة كلمات الحرية والاخاء والعدل ، ويصيح فيهم والقطار يتحرك «اخوكم الحر يودعكم ويسير باخوانكم الى دمياط ! اجعلوا عروة الود وثيقة .. لا تحلوا حبل الاتحاد الذى جاهدتم فى إحكامه ! » .. فاذا وصل القطار الى غايته ، أسرع عائدا الى القاهرة ، ليسافر مع فرقة عرابى الذاهبة الى الزقازيق ، فى رحلة مشابهة .. وهكذا ..

حتى الافراح .. لم يترك فرصتها ، وصار المعازيم فى الافراح يسمعون وصلة من الغناء ثم خطبة من النديم ! ..

وفى اللحظات الحرجة ، تكون له قيادة الجماهير والسيطرة فى الشوارع .. جاء أسطول مشترك من الانجليز والفرنسيين الى الاسكندرية . وقدم وزيرا انجلترا وفرنسا الى الخديوى مذكرة مشتركة يطلبان فيها ابعاد عرابى عن مصر ونفى زميليه على فهمى وعبد العال حلمى داخل البلاد واسقاط وزارة البارودى . أوروبا تتدخل فالثورة فى حاجة الى تأييد شعبى .. ويسرع النديم الى الازهر فيشعله حماسة فى مناصرة الثورة ، حتى يفتى بعض المشايخ بتكفير الخديوى .. ثم يطير الى الاسكندرية يخطب فى

الشوارع وينظم المظاهرات الشعبية التى تهتف : ابعدوا السفن الاجنبية .. ويجوب الحوارى والازقة التى نشأ فيها ، والتى باتت تحت رحمة مدافع الاساطيل الانجليزية ، يعلم النساء والاطفال والرجال نشيدا يرددونه .. واحد يهتف ، اللايحة[1] اللايحة .. فيردون عليه : مرفوضة مرفوضة ! ..

ويشهد الاجانب فى الاسكندرية منظرا عجيبا .. النساء فى النوافذ يهتفن : اللايحة اللايحة .. والجماهير فى الشوارع تردد : مرفوضة مرفوضة ! ! ..

ولكن .. بعد شهرين من هذه الحملة تنطلق مدافع الاسطول الانجليزى تدك كل عزيز عليه .. تمزق جماهيره الهاتفة ، وتحطم البيوت التى طاف بها ، وتشعل النيران فى الحوارى التى لعب فى ترابها ..

* * *

اتذكر ـ ايها القارئ ـ حريق القاهرة ؟ ..

اتذكر كيف دبر الانجليز والخونة المحليون هذه المؤامرة لبث الفوضى ولاتخاذ الحوادث الدامية ذريعة للتدخل وايقاف النشاط الوطنى فى القنال ؟ ..

اتذكر كيف تراخى البوليس ـ لسبب مجهول ـ عن حفظ الامن ، واشترك بعض افراده فى الاخلال به ، ومنع الجيش من النزول الى الشوارع الا فى ساعة متأخرة ، بعد ان احترقت المدينة ؟ ..

لم تكن هذه خطة جديدة . فقد صنعها الانجليز والخديوى بتدبير «مذبحة الاسكندرية» سنة ١٨٨٢ لتبرير الغزو .. ولا اثقل عليك بالادلة .. اقرأ فقط نص

---

(١) أى المذكرة الانجليزية الفرنسية .

كلام المؤرخ روذستين «ابتدأت الفتنة حوالى الساعة الاولى بعد الظهر واستمرت الى حوالى الساعة الخامسة .. حدث ذلك كله ورجال البوليس كانوا تارة لا يفعلون شيئا وتارة يشتركون فى الفتك والتدمير. اما عمر لطفى (محافظ المدينة) فكان فى اثناء ذلك قد استحوذ على محل التلغراف ليكون على اتصال بالخديوى ، ولم يخبر سليمان سامى قائد الحامية بشيء عن الفتنة الا بعد مضى الساعة الرابعة ، وحتى فى هذه الساعة امره بأن يقود الجنود عزلا من السلاح» !!

وفى منفاه كتب محمد عبده مرة يقول «أن اكثر من قبض عليهم بعد الحادث بيوم كانوا يقولون : «لا لوم علينا فأن سعادة المحافظ نفسه هو الذى كان يأمرنا بأن نضرب وأن نسرق !!»

لكأننا نقرا قصة ٢٦ يناير! .

وأراد الانجليز أن يلصقوا التهمة بأحد . فاتجه تفكيرهم الى من كان يقود الجماهير منذ قليل .. فأرسل لورد جرانفيل الى قنصل انجلترا يقول «اطلب اليك أن تتخذ الخطوات التى تؤيد هذا الدليل وبخاصة مسلك النديم ووكلاء عرابى» .

وكان توفيق قد لاذ قبل ذلك بقصور الاسكندرية ، ليكون تحت حراسة مدافع الاسطول المصوبة الى رعيته .. ونشبت الحرب .

بدأت الحرب فى كفر الدوار ، ودارت معها حرب منشورات : النديم يكتب المنشورات ويوزعها على الاهالى معلنا خيانة الخديوى داعيا الى تأييد عرابى ، وفى الناحية المقابلة عملاء الخديوى يكتبون نشرات تعلن خيانة عرابى ..

وانتقلت المعركة الى التل الكبير بعد ان اخترق الانجليز قناة السويس . والتهبت حماسة النديم وتزايد نشاطه بشكل منقطع النظير .. يطوف بالاقاليم مستفزا الناس للتطوع ، داعيا الى التبرع بالطعام والثياب والسلاح للجيش الذى ذهب بلا طعام

ولا ثياب ولا سلاح .. مؤكدا للناس أن النصر أكيد .. ونقل مجلته «الطائف» الى جبهة القتال ، يصدرها هناك فى ورقة واحدة .. وكنت تراه فى كل مكان .. يحمس الجنود وهم يتدربون فى قلب الخنادق ، يخطب فى الفلاحين الذين يحفرون ، وحول النار فى الليل لا يكف عن الكلام وتاكيد الانتصار .. مساهما مع الناس فى اطلاق الاناشيد :

يا مولانا يا عزيز ..
أهلك عسكر الانجليز ! ..

وانهزم عرابى فى التل الكبير . هزمته رشوة البدو . وانضمام الجبناء من رفاقه الى الخديوى ، وخيانة الضباط الشراكسة ، والفتاوى التى جاءت من علماء الدين فى استانبول ـ كالعادة ـ تقول أن عرابى كافر ! ..

كتب «أحمد سمير افندى» صديق النديم الحميم يقول : «فلما وقعت تلك الالعوبة المبكية المسماة بواقعة التل الكبير ، فر عرابى وأخوه وعلى الروبى والنديم وقت السحر فحضروا الى القاهرة فى الساعة الرابعة بعد الظهر . وقصدوا فى الحال الى قصر النيل مركز نظارة الحربية اذ ذاك ، وكنت هناك وقتها فرأيتهم فى منظر لا يسر . فقصدت النديم واستخبرته الخبر فأخبرنى أن الانجليز استولوا على التل الكبير ، ولم يزد على ذلك شيئا . ثم ركب ومعه صاحب له فى عربة وتبعتهما بعد قليل الى بيته فلم اتمكن من رؤيته ، لانى صادفت بالباب من اخبرنى انه لا يريد أن يقابل احدا إلا غدا حيث يكون قد ارتاح من تعب السفر» .

انتهت الثورة اذن .. ودخل الانجليز القاهرة التى اغلقت على ابطال الثورة كالمصيدة . وفى ايام بات كل من لعبوا دورا فى الخيانة سادة ، وكل من لعبوا أدوار البطولة فى قاع السجون .. ولكن ، أين النديم ؟ .. أين ذلك الشيطان المريد ذو

اللسان الطويل ، الذى نعت توفيق بأقذع النعوت وشن عليه أعنف الحملات ؟ أين هذا الثورى الخطير ليحاسب على ما قال لسانه وما خطت يداه ؟ ..

لقد انفرد النديم دون جميع الذين ساهموا فى أحداث الثورة بمصير لم يشاركه فيه احد على الاطلاق . فهو الذى تعود الصعلكة ثم الحركة الخاطفة لا يمكن أن يطيق السجن . وهو أيضا لا يتصور النفى .. انه قطعة من طين هذه البلد ، جذوره عميقة فى أرضها ، انه لا يعيش فى المنفى الا اذا عاشت السمكة خارج الماء . وعلى ذلك قرر أن يختفى .. وأن يواجه أعجب فترة فى تاريخ حياته العجيبة : تسع سنوات من حياة الاختفاء والمغامرات .. خلفه رجال الحكومة ينقبون ، وجائزة الف جنيه لمن يأتى به حيا او ميتا ! .

خرج من بيته لا يصحبه الا خادم له ، وأوى الى بيت صديق له فى بولاق ، يختفى فيه ريثما يدبر أمره .. وبعد عشرة أيام ، خرج من هذا البيت رجل غريب الهيئة قد ليس « زعبوطا » أحمر ، وعمامة ضخمة حمراء .. على عينيه منديل كبير ، وفى يمناه عكاز عتيق يتوكأ عليه ، وقد طالت لحيته وأبيضت اطرافها التى تكاد تضرب على صدرة . وخلفه خادم له يحمل بعض الزاد الخفيف ، ويقول للناس أن « سيده » شيخ من مشايخ الطرق الصوفية ، وسار الاثنان يتعثران الى ساحل النيل فى بولاق .

هكذا خرج عبد الله النديم يواجه حياته الجديدة . الان سيحتاج خطيب الثورة الشهير الى كل مواهب « الادباتى » القديم .. الى كل درايته بالناس ليكسب ثقتهم ، وبراعته فى التقليد لخداعهم .. هذه الحياة الشعبية الحافلة بالجهل والخرافات والتى ثار ليغيرها ، عليه الان أن يعود اليها ، ويذوب فيها .

وعند ساحل بولاق ، ركب النديم وخادمه سفينه نيلية الى بلدة قريبة من بنها اسمها «ميت الغرقا» حيث نزل فى ضيافة صديق قديم له من أعيان البلدة . وبعد أيام من مقامه فى البلدة انهارت أعصاب خادمه ، وأستبد به الخوف ، وأراد أن يتركه عائدا الى اهله . وخشى النديم اذا تركه أن يدل عليه .. فلجأ الى الحيلة .. أحضر جريدة «الوقائع المصرية» وقرأ فيها قليلا ـ وكان الخادم إميا ـ ثم اظهر انه فزع فجأة ، وضرب كفاً بكف . وسأله الخادم : ما الخبر؟ فقال له «لقد جعلت الحكومة الف جنيه لمن يرشد عنى ، وخمسة آلاف جنيه لمن يأتيها برأسك ! » فارتعد الخادم ، وأصبح من يومها اكثر اهتماما بالاختفاء من سيده .. وظل كذلك طوال السنوات التسع !! .

وبعد ان قضى سنة فى «ميت الغرقا» خشى مضيفه ان يفتضح الامر ، فارسله الى صديق له هو الشيخ محمد الهمشرى عمدة «العتوة» فى مديرية الغربية .. وأكرمه الشيخ الهمشرى جدا ، وكتم سره الا عن زوجته ، وبلغ من أكرامه انه زوجه وزوج خادمة .

وبعد عام آخر مات الشيخ الهمشرى ، فجاءت زوجته بأكبر اولادها وكان شابا لا يتجاوز الخامسة عشرة وقالت له : هذا يا ابنى عبد الله النديم الذى جعلت الحكومة لمن يهديها اليه الف جنيه . فهل تريد ان تؤويه كما فعل أبوك ام ترغب فى حطام الدنيا فاكون بريئة منك الى يوم الدين ؟ فقال لها الولد : حاشا لله أن أفعل ذلك . وسترين انى أحافظ عليه محافظتى على عرضى ..

وفعلا مكث النديم عنده ما يقرب من ثلاث سنوات اخرى . حتى وشى به عدد من أعداء الاسرة ، فاضطر الى الفرار هو وخادمه وزوجتاهما ليلا ، مجتازين الحقول والقنوات .

وبعد هاتين الضيافتين الطويلتين لم يعرف النديم استقرارا فى مكان . وكلما مضت الايام ، زاد الاختفاء صعوبة ..

وكان فى هذه الاثناء يلجأ الى عشرات من الحيل لا يستطيعها غيره ، فلا يدخل قرية الا وقد ظهر فى مظهر جديد باسم جديد فهو مرة شيخ من مشايخ الطرق الصوفية ، وهو مرة عالم يمنى اسمه الشيخ يوسف المدنى ، ومرة ثالثة اسمه الشيخ محمد الفيومى ، ورابعة عالم مغربى اسمه «سى الحاج على المغربى ! » وقد بلغ عدد الاسماء التى انتحلها تسعة . ثم هو فى كل مرة يغير شكله وهيئته كالمهرج فى الروايات .. مرة يبخر لحيته بالكبريت حتى تبيض فيبدو شيخا فانيا ، ومرة يصبغها بالحناء فيصبح لونها احمر ، ثم يعود بها الى لونها الاسود مرة ثالثة .. وهى تقصر وتطول حسب الظروف .. وكان هذا الممثل القديم قديرا على أن يرطن بأى لهجة يشاء .. مغربية او سورية او يمنية ! ..

وقد حدث له فى ظروف كثيرة ان التقى بناس كانوا يعرفونه قبل الاختفاء ، فلم يعرفوه .. كتب صديقه احمد سمير افندى ان عبد الله النديم اخبره بعد ذلك «انه اجتمع بالمرحوم مصطفى صبحى باشا مدير الغربية فى الكوم الطويل وتكلما طويلا ، فقال هذا : لولا علمى أن النديم قد مات وانقضت ايامه لقلت انه هو هذا الرجل بعينه ، ولكن جل من لا شبيه له ! . وانه جلس ليلة على رصيف محطة طنطا ينتظر القطار الذاهب الى كفر الزيات . وكانت الحكومة قد ارسلت الجواسيس فى اكثر البلاد للقبض عليه . فلقيه فريق منهم اشتبهوا فى أمره ، فما زال يحدثهم حتى اعتقدوا انه رجل من الصالحين المقربين ، فلما جاء القطار أوصلوه اليه وحملوا عنه أمتعته وظلوا وقوفا الى أن أوشك القطار على التحرك فقبلوا يديه وسألوه الدعاء ! »

وكان فى محنته هذه يحظى احيانا بأيام صفاء ، فيعكف على الكتابة والقراءة

لا يكل ولا يمل .. كتب مرة الى صديق له ـ وهو مختف ـ يقول : « ان سألت عنى فأنا بخير وعافية ، وحالة رائقة صافية ، لا أشغل فكرى بما يأتى به الليل اذا كنت بالنهار ، ولا أتعب ذهنى بتوالى الخطوب والاقدار ، ولا اتألم من طول المدة ووقع الشدة ، لا عتقادى أن لكل شدة مدة متى أنتهت جفت الاوحال ، وحسنت الحال . فترانى فكرى كليمى ، وقلمى نديمى .. وقد تم لى الان عشرون مؤلفا بين صغير وكبير ، فأنظر الى آثار رحمة الله اللطيف الخبير ، كيف جعل أيام المحنة ، وسيلة للمنحة والمنة .. »

وقد ساعدته على هذا الهدوء حينا حيلة بارعة لجأ اليها .. اذ أوعز الى رجل فرنسى كان صديقا له ايام الثورة وظل متصلا به ، يزوده بالكتب ، ايام الاختفاء .. أوعز اليه فأشاع ان النديم هرب الى «ليفورنو» فى ايطاليا .. ونشرت الصحف النبأ على انه حقيقة ، وثار الوزراء وانبوا رجال البوليس تأنيبا شديدا . ثم هدأ البحث عنه .

على انه قاسى فى هذا الاختفاء ويلات لا حد لها .. وكانت تمر به لحظات شقاء بالغ تعصر فؤاده عصرا ..

يقرأ فى الصحف ـ مثلا ـ أن سلطان باشا وبعض الاعيان يقدمون الهدايا الى قواد الجيش الانجليزى تقديرا لهم على احتلال مصر .. فيبكى ! .. يجد نفسه أحيانا حبيسا فى حجرة قذرة ، يفصل فى مشاجرات حقيرة على زاد تافه بين زوجته وزوجة خادمه .. ويسمع للاثنتين صابرا ، هو الذى طاول الملوك ، واشترك فى قيادة ثورة ، وقاوم امبراطورية بأسرها ! او تقسو عليه زوجته وتسئ معاملته الى حد رهيب ، وهو يتحملها صابرا حتى لا يتركها فترشد اليه ! او تجيئه الانباء أن أباه واخوته مشردون فى البلاد تضطهدهم السلطات ولا يسعفهم صديق .. وأن كتبه

ومؤلفاته التى اجتمعت له بعد جهد دام تسعة عشر عاما سقطت فى النيل ، اثناء الهجرة السريعة التى اندفع اليها الاهالى بعد ضرب الاسكندرية ! ..

وقد تمر عليه الايام لا يجد طعامه ومن معه . وقد يختفى الشهر فى حجرة مظلمة تنشع أرضها بالماء ، لان الشرطة فى مكان قريب تبحث عنه . ولربما تثور نفسه وتتوتر أعصابه وهو على هذه الحال فيلجأ الى الكتابة يفرج بها كربته .. يصنع الحبر من هباب المصباح ، ويكتب فى الضوء الكابى الذى تفوح فيه رائحة الغاز ..

ولكن الناس بعد ذلك كله يحبونه ، ويتلقون هذا المجاهد الشريد بقلوب كبيرة .. هذا ضابط بوليس يراه فى الداورية وهو يفر فى الحقول ، فيامر جنود الداورية أن يسبقوه ، ثم يتجه اليه ويقول له : قد عرفتك .. انت النديم . ويظن النديم انه قد سقط ولكن الضابط يعطيه ثلاث جنيهات هى كل ما فى جيبه ، ويتركه بعد أن يصف له أسهل الطرق ! .. وهذا «محمد معبد» الحلاق فى قرية «شباس الشهداء» يستضيفه ويكتم سره اياما . والفلاح «أحمد جودة» يسير معه كالدليل فى الحقول المظلمة ليساعده على الفرار من قبضة تلاحقه .. وعشرات من ابناء هذا الشعب الطيب .. الذين من اجلهم ثار النديم ، ومن اجلهم يختفى ، ومن اجلهم يتشبث بالحياة ! .

وكانت آخر قرية دخلها متخفيا هى «الجميزة» فلم يلبث فيها اياما حتى حاصرها البوليس ، والقى القبض عليه .. بعد وشاية من جاسوس استطاع أن يعرف حقيقته . وأرسل الى نيابة طنطا بعد تسع سنوات من الفرار المتصل ، وأحسن وكيل النيابة «قاسم أمين» معاملته ، حتى تجئ التعليمات الخاصة به من القاهرة ..

وكانت حدة الثورة العرابية قد ذهبت ، والتأمت كثير من الجروح ، وكانت سياسة الاحتلال تعمد الى استرضاء أبطال الثورة القدامى لتخفيف غضب الناس ،

فأوعزت الى الخديوى توفيق فعفا عنه ، بشرط أن يترك مصر الى أى بلد يشاء .. واختار اقرب البلاد الى مصر : يافا الفلسطينية .

ولما هبط من الباخرة فى يافا ، ترقرقت الدموع فى عينيه حين وجد جمعا من الناس فى انتظاره يستقبلونه مهللين مرحبين . فما زال الناس يعرفون جهاده ، واقام هناك زمنا .

ثم مات الخديوى توفيق وخلفه عباس ، وعفا الخديوى الجديد عن عبد الله النديم ، فعاد الى مصر سنة ١٨٩٢ .

عاد ليجد ازمة سياسية عنيفة بين اللورد كرومر والخديوى عباس . وليجد النشاط السياسى خامدا ، والرأى العام ساكنا جامدا ، والخونة قد تربعوا فى مقاعد الحكم والمتعة ، والانجليز يصولون ويجولون فى البلاد .. بلا معارضة ولا مقاومة ولا اى شىء على الاطلاق ..

هل ضاع الامل فى هذه البلد ؟ ..

كلا .. ففى ذات ليلة يطرق باب هذا الثائر القديم شاب نحيل رقيق ، كأنه شاعر عاشق ، يقول انه طالب فى كلية الحقوق ، وان اسمه : مصطفى كامل ! جاء يسأل النديم عن القصة الحقيقية للثورة .. القصة الحقيقية التى لم يكن قد عرفها الناس بعد ، الصورة الحقيقية للابطال الذين يلطخهم الاستعمار وأذنابه الان بالوحل .

ويجد النديم بغيته .. فهذا هو شاب من الجيل الجديد يستطيع أن يحمل الرسالة . تلميذ آخر يستطيع أن يبث فيه تعاليمه ، وينفض عليه كل حرارته .. ويقول الاستاذ عبد الرحمن الرافعى : أن مصطفى كامل قد تأثر الى حد بعيد بما

سمعه وعرفه من زياراته للنديم . وانه كان حريصا فى حركته الوطنية كل الحرص على أن يتجنب اخطاء الثورة العرابية .

* * *

لقد أوصل النديم الشعلة ، وأبلغ الامانة .

ولكن هذا الرجل العجيب لا يهمد . انه يصدر مجلة اخرى باسم «الاستاذ» ، اسم وقور رزين هذه المرة . وتبدأ المجلة فى أول أعدادها وقورة أيضا .. باللغة العربية كلها ، فيثور عليه القراء .. ورفاقه القدامى .. فيعود مسرعا الى أيام «التنكيت والتبكيت» نصفها باللغة العربية ونصفها باللغة العامية .. قصص تندد بالخمول والجبن والضعف .. وكل الادواء التى سادت فى ذلك الوقت . ولكنه ينسى نفسه . ينسى أن ثمة حدودا وقيودا يجب أن يقف عندها ، وأن أيام الثورة قد ذهبت ، وينطلق مع سجيته الحارة فيهاجم الانجليز والاجانب .. ويشتد فى حملاته رويدا رويدا ، حتى انقلبت المجلة الى ثورة .. وفعلا بدأت الخواطر تهيج ، والطلبة يتحمسون ، والرقود يستيقظون .. وتصرخ جريدة التيمس الانجليزية فى لندن : كيف تتركون هذا الرجل ؟ .. انه سيشعل لكم فى مصر ثورة اخرى ! .. هذا العنيد الذى ما يزال يقاوم وقد استسلم الجميع ، لو تركتموه فسوف يتشجع الآخرون .. وتشتعل النار .

وتنشط السلطات جميعا .. الانجليزية والمصرية على السواء .. ويصدر الامر باغلاق المجلة ، وأسكات «الاستاذ» ونفى السيد عبد الله النديم ، قبل أن تمر عليه فى وطنه سنة واحدة !

وعلى عجل يجمع النديم ثيابه ، مرة أخرى ، ويركب السفينة الى يافا .. هناك يستدعيه السلطان عبد الحميد الى استانبول !

كان السلطان عبد الحميد يسير على خطة غريبة ! يجمع الثائرين الذين يثيرون القلاقل فى استانبول ليكونوا فى متناول يده . ويوظفهم فى وظائف اسمية بمرتبات لا بأس بها . كذلك صنع بالنديم .

ويضيق النديم بهذا القفص الذهبي .. ومن يحارب ؟ .. من يهاجم ؟ .. الا من مبارز ؟ .. هناك ذلك الشيخ المطمطم «عبد الهادى الصيادى» مستشار الخليفة العثمانى .. والحاكم بأمره فى الامبراطورية التركية كلها ، والرجل الذى تنحنى له الجباه فى استانبول ، ويصطدم به النديم ، وكما صنع فولتير حين اصطدم بمستشار فريدريك الاكبر فوضع فيه كتابا اسمه «الدكتور أكاكيا» جعله سخرية اوروبا ، ثم فر بجلده من المانيا .. كذلك صنع النديم . وضع فى هذا الرجل الخطير كتابا اسمه «المساير» قال الذين قرأوه : انه بذئ جدا ! .. ولم يستطع النديم الفرار ، ولكن اصدقاءه استطاعوا أن يهربوا الكتاب حتى لا يقع فى يد الخليفة ..

* * *

وبعد ..

من كان يتوهم أن هذا الرجل الذى لا يكل ولا يمل ، الذى قاوم الملوك وبات فى كهوف الطين ، يحمل فى صدره جرثومة .. السل ؟ ..

انه هنا .. وهو مستريح ، بلا عمل ولا صراع ، يستسلم لمرض السل .

وفى ١٠ اكتوبر ١٨٩٦ يموت ، فى الرابعة والخمسين فقط !

وخلف النعش الذاهب الى القبر كان يسير شيخ افغانى عجوز ، محطم ، كان هذا المحمول فى النعش تلميذا له فى أيام بعيدة .. حين كان يجلس فى القاهرة على قهوة متاتيا يشرب الشيشة و«يوزع السعوط بيمناه ، والثورة بيسراه !»

للجلاء .. والدستور .. والفن الجميل !

وهذه دار « اللواء » ..

وقد سرنا فى شارع « نوبار باشا » ـ الدواوين حاليًا ـ حتى وصلنا إلى البيت الكبير رقم ٣١ ، الذى تشغله الان « مدرسة عابدين الابتدائية » . ففى هذا البيت أسس مصطفى كامل جريدة « اللواء » فى سنة ١٩٠٠ .. وقد مضت على هذا التاريخ عُشر سنوات ، فنحن الآن فى سنة ١٩١٠ ..

هذه إذن هى الدار التى صدرت فيها « اللواء » ، وأن جدرانها لتنضح بالذكريات . ففى هذه الحجرة كان مصطفى كامل يسهر إلى الصباح ، إلى أن تخرج المطبعة أول أعداد الجريدة .. كاتبًا أحيانًا ، متحدثًا أحيانًا ، ملتهبا دائما .. وهذه الساحة شهدت انعقاد أول جمعية عمومية لأول حزب سياسى علنى عرفته مصر .. الحزب الوطنى ، وشهدت الأعضاء القادمين من جميع أنحاء القطر ينتخبون مصطفى كامل رئيسًا مدى الحياة .. مدى حياته القصيرة الخاطفة .. وهنا كانت منصة وقف عليها مصطفى يلقى برنامج الحزب .. وهذه الحجرة الموحشة شهدته

يصعد إليها بعد انتهاء الحفل مجهدا ، مهدودا ، قد اكلت صدره العلة .. ثم شهدته يموت .

نحن الان فى هذه الدار ، بعد سنتين فقط من وفاة مؤسسها وقد حل محله فى رئاسة الحزب رجل بدين ، وقور ، سريع الكلام .. يضع على عينيه نظارة ذهبية انيقة ، هو محمد فريد ، أما رئيس تحرير الجريدة فهو الآن الشيخ عبد العزيز جاويش .

وفى أحدى حجرات الدار ، نجد شابًا معمما ثائرا .. يعمل مصححا فى الجريدة ، وينظم من حين إلى آخر قصيدة ملتهبة تنشرها له « اللواء » .. هو الشيخ على الغاياتى . وقد جمع الشيخ على الغاياتى مجموعة قصائده لينشرها فى ديوان ، وذهب إلى محمد فريد وعبد العزيز جاويش يطلب من كل منهما أن يكتب له كلمة تقديم . وكتب له محمد فريد كلمة عن « أثر الشعر فى تربية الأمم » ، وكتب له عبد العزيز جاويش مقدمة أخرى .. ولم يمض شهران حتى كان ديوان « وطنيتى » قد خرج إلى الناس .

وفجأة .. أصدرت الحكومة أمرًا بمصادرة الديوان ومنع تداوله ، وبمعاقبة كل من يضبط متلبسا بجريمة عرض الكتاب للبيع . ونشرت الصحف أن النيابة العامة ستقدم إلى المحاكمة كل من شارك فى اصدار هذا الكتاب .

وكان محمد فريد مسافرا فى أوروبا . وعلى الغاياتى فى تركيا . لم تجد النيابة فى القاهرة الا عبد العزيز جاويش . ورجل اسمه « الياس أفندى دياب » صاحب مكتبة ضبطت تبيع الديوان . وانتهت النيابة من تحقيقها بسرعة ، وقدمت على الغاياتى (غيابيا) وجاويش والياس دياب إلى المحاكمة ، وكانت تهمة الغاياتى القذف فى حق الوزراء والمحاكم والحض على كراهية الحكومة .. حكومة الاحتلال طبعًا . أما

تهمة جاويش فهى أنه حرض الغاياتى على ذلك ، وساعده على إخراج الديوان بالمقدمة التى كتبها له .

ووقف جاويش والياس دياب فى قفص الأتهام . وجلست على منصة القضاء هيئة المحكمة برئاسة محمد مجدى بك وعضوية على ذو الفقار بك ومسيو سودان . ومثل النيابة رجل سيصبح شهيرا فيما بعد .. اذ رأس ديوان الملك فؤاد مرة ، ورأس الوزارة فى غيبة الدستور مرة أخرى ، وهام فى أواخر أيامه بحب فتاة نمساوية من فتيات الفنادق ، هو توفيق نسيم . أما الدفاع فقد نهض به أحمد بك لطفى ومحمد بك أبو شادى وعبد السلام ذهنى ..

وكان اهتمام النيابة بعرقلة الدفاع والتضييق عليه واضحا . فقد طلبت النيابة من المحامين الذين حضروا التحقيق أن لا يدونوا أى ملاحظات فى ورق أو مذكرات معهم .. وتهكم أحمد بك لطفى على ذلك فى الجلسة فقال : أنه كان يجب على النيابة أيضا أن تمتحن ذاكرة المحامين ، وتمنع قوى الذاكرة منهم من الحضور ! .

وأراد محمد بك أبو شادى أن يطبع مذكرة الدفاع فأصدر حكمدار العاصمة أمرا بمنع ذلك .. لأن المذكرة ـ طبعا ! ـ كانت تستشهد ببعض أبيات الديوان المصادر . ولما كان الديوان مصادرا .. فان طبع أى بيت منه ، ولو فى مذكرة الدفاع ، ممنوع ! .

وفى الجلسة وقف توفيق نسيم يشن حملة هائلة لا على المتهمين فقط ، بل على الشعراء جميعا ! بدأ مرافعته قائلا :

«قام رجل من أسراء الخيال (أى الشعراء) الذين ينظرون بغير روية ويحكمون بغير عقل ، وأخذ لنفسه حظها من لذة استباحة الجرائم وتعظيم الجناة .. قام هذا

الشاعر المفتون ووضع هذا الكتاب باسم « وطنيتي » فلا حيا الله وطنيته ولا بارك الله فيها من وطنية فاسقة . لقد مجد فعلة « الورداني »[1] وهو قاتل سفاك .. وهذا تحريض على أرتكاب الجنايات .. حقا أن فى هذا الكتاب جملة قصائد أدبية مثل شفاء ولى العهد ورثاء عاصم باشا ! ! ولكن هذا لا يبرر سائر ما فى هذا الكتاب الذى يعظم الاثم ويدفن الحسنة » .

وسرد توفيق نسيم بعض ما جاء فى الديوان من أبيات معاقب عليها مثل :

الا أمطر الله الوزارة نقمة ولا بلغت مما تروم مراما

ومثل :

عار عليكم أن يقال وزارة لم تدر أن سئلت بيان جواب

ومثل قول الشاعر مخاطبا رئيس المحكمة الذى حكم بالسجن على عبد العزيز جاويش فى قضية سابقة :

حكمت فلم تنصف وقلت فلم تصب
ورمت مراما دونه الله والناس !

وبعد أن حلل توفيق نسيم أغراض الشاعر من قصائده ، أنتقل إلى عبد العزيز جاويش فأثبت أنه شريك فى الاثم لأنه كتب مقدمة الكتاب ، وفند دفاع جاويش عن نفسه بأنه كتب المقدمة قبل أن يقرأ الديوان قائلا : أنه لا شك قرأ القصائد قبل ذلك فى الصحف ..

ثم ختم مرافعته قائلا : « ما لهؤلاء الكتاب يزخرفون الكلام البذىء للجمهور ،

---

(١) الوردانى هو الذى قتل بطرس غالى لأنه وقع اتفاقية السودان .

ألا يعرفون عواقب ما يكتبون ؟ أنهم اذا أصلحوا كتاباتهم أصلحوا أمتهم واذا أفسدوا كتاباتهم أفسدوا أمتهم . وليس أهون على الكاتب من أن يجلس على مقعده ويكتب ما يشاء .. فاحتفظوا بأنفسكم أيها الكتاب ، والتمسوا الخير لأمتكم من وجوهه الصحيحة ، فقد مزق انذار الوقائع الآذان ، وكادت تفقأ عبر الحوادث العيون ! ! » .

ثم تكلم الدفاع .. وكان محور كلامه أن هذه القصائد نشرت قبل ذلك فى الصحف دون أن تعترض عليها الحكومة . فصاحبها معذور اذا هو جمعها بعد ذلك فى كتاب وأخرجها للناس .

ولكن المحكمة لم تقتنع بهذا الدفاع فحكمت على الغاياتى ـ غيابيا ـ بالحبس سنة مع الشغل وعلى عبد العزيز جاويش بالحبس ٣ شهور وعلى الياس دياب بالحبس شهرين مع أيقاف التنفيذ .

على أن هذا كله ليس هو القضية .. إن هو الا مقدمة فحسب .

أما القضية فهى قضية محمد فريد . فقد كان مفهوما أن الحكومة تصيدت هذا الكتاب لكى تصل به إلى ايذاء الرأس المفكرة ، والروح المجاهدة ، التى توجه نشاط الحزب الوطنى : أى إلى محمد فريد نفسه . وكأن محاكمة جاويش والغاياتى لم تكن الا تجربة لتعرف منها الحكومة مصير محمد فريد اذا قدُم إلى المحاكمة . فلما صدرت هذه الأحكام عرف أن الحكومة ستقدم فريد إلى المحاكمة بمجرد عودته من أوروبا ..

وكان اتجاه نية الحكومة إلى تحطيم محمد فريد والحركة الوطنية كلها واضحا قبل ذلك بشهور طويلة .

فكما تصنع كل حكومة مستبدة أخذت الحكومة تضيق الخناق على حرية الرأى شيئًا فشيئا .. فى مارس ١٩٠٩ أصدرت قرارا باعادة العمل بقانون المطبوعات الذى صدر فى ٢٩ نوفمبر ١٨٨١ ابان الثورة العرابية ! وعللت ذلك بـ « تمادى الجرائد فى التطرف والخروج عن الحد حتى أدى ذلك لشكوى الناس ! » ثم أصدرت قانونا يجعل القضايا الصحفية من اختصاص محاكم الجنايات بدلا من محاكم الجنح .. ذلك أن محاكم الجنايات أحكامها أشد ، ولأن أحكام محكمة الجنح يمكن استئنافها ، أما أحكام محكمة الجنايات فهى نهائية لا تقبل طعنا ، اذ لم تكن محكمة النقض قد انشئت بعد ..

وبات الناس فى قلق ، ينتظرون عودة محمد فريد .

فماذا كان يصنع محمد فريد فى أوروبا ، والحكومة المصرية تفتل له الحبال ؟ ..

لم يكن يلهو ويتنزه .. لم يكن ينفق أمواله فى متعة أو هواية .. بل كان فى نفس الأيام التى انعقدت فيها الجلسات لمحاكمة أصحابه ، يستعد لعقد مؤتمر دولى فى باريس لبحث المسألة المصرية . وقد أنفق على المؤتمر من ماله .. واستخدم نفوذه لكى يحضره أكبر عدد من الساسة والنواب والزعماء وجميع العناصر المعادية للاستعمار فى أوروبا ، والهند ، والشرقين الاوسط والبعيد .. وقبل عقد المؤتمر بأسبوع قررت الحكومة الفرنسية منع اجتماعه فى باريس ، حرصًا على مجاملة انجلترا .. فأسرع فريد ينقل مقر المؤتمر إلى بروكسل .

وعقد المؤتمر فعلا .. واستمر أياما حافلة تركزت فيها الاضواء على قضية مصر .. وفى الوقت الذى كان وكيل النيابة فى القاهرة يجرح محمد فريد ، كان فريد يقف على منصة أخرى فى بروكسل داعيا إلى استقلال مصر كلها ، بما فيها وكيل النيابة توفيق نسيم ! ..

وفى هذا المؤتمر القى «كير هاردى» مؤسس حزب العمال الانجليزى ، وزعيمه المعروف خطبة شهيرة ، هاجم فيها المصريين لانهم يفكرون فى مقاومة الانجليز مقاومة سلبية ، وقال أنه لن يخرج الانجليز من مصر الا الثورة المسلحة ! .

فى أثناء هذا المؤتمر.. تلقى محمد فريد أنباء مصر.. وعرف أنه مطلوب للمحاكمة ! .. فقد انهالت عليه خطابات اصدقائه فى مصر ، يقولون له : لا تعد إلى مصر ! .. أنهم يريدونك ! يريدون أن يضعوك خلف القضبان ويستريحوا ! ابق فى أوروبا ، فهناك تستطيع أن تجاهد ! .

ولكن فريد لم يستمع إلى كل هذه الاصوات .. استمع إلى صوت واحد رقيق ، ينبعث من خطاب نادر المثال .. خطاب من ابنته «فريدة» التى شبت على حجره وتشربت من عقيدته ، ارسلت إليه الأبنه الشابة تطلب منه ـ دون الناس جميعا ـ أن يعود إلى مصر ، ويدخل السجن : «لنفرض أنهم يحكمون عليك بمثل ما حكموا به على الشيخ عبد العزيز جاويش ، فذلك أشرف من أن يقال بأنكم هربتم» .. و «أختم جوابى بالتوسل أليكم باسم الوطنية والحرية ، التى تضحون بكل عزيز فى سبيل نصرتها أن تعودوا وتتحملوا آلام السجن ! » .

وحزم فريد حقائبه ، وركب الباخرة .. فى طريقه إلى السجن ! .

ولكن .. قبل أن يصل فريد إلى شاطئ مصر.. يجب أن نعرف : لماذا كان الانجليز ، وعملاء الاحتلال ، يكرهون فريد إلى هذا الحد ؟ .. ما الذى أخافهم منه ؟ ..

السبب معروف لكل من يدرس حقيقة جهاد محمد فريد .. جهاده الذى نسيه تلاميذه ، والذين يزعمون أنهم له تلاميذ ! .

ألا تعرف ـ أيها القارئ ـ من خلفاء مصطفى وفريد من كانوا حربا على الدستور ، فى صور شتى من الحرب ، وعونا للاستبداد والدكتاتورية فى ثياب شتى من العون ؟ .. استعرض فى ذاكرتك أسماء الذين انتحلوا اسم الحزب الوطنى ، والذين اشتركوا فى تركة مصطفى وفريد : ستجد فيهم من تمسح فى أعتاب فؤاد وفاروق ، ومن تولى الوزارة فى حكومات الاقليات ، ومن أستمرأ الجلوس فى مقاعد الحكم بغير دستور . ومع ذلك .. فإن الواحد منهم لا ينسى ـ اذا جاءت المناسبة ـ أن يخطب على قبر مصطفى ، أو تحت صورة فريد . إنهم لم يجعلوا مبادئ مصطفى وفريد حقيقة حية تعيش وتسعى بين الناس بسلوكهم على نهجها ، بل حنطوها وجففوها ووضعوها فى صندوق زجاجي يتفرج عليه الناس . لم يجعلوا الحزب الوطنى بيتا مضيئًا يقصده الناس ، بل «وقفا» خربا .. يتنازعون على نظارته ! ..

كانت مبادئ مصطفى وفريد عندهم كلاما وورقا فحسب . فى حين أن الزعامة لم تكن أبدًا مجرد «كلام» فقط ، بل و «سلوك» قبل أى شىء آخر . سهل جدا أن أدعوك ـ أيها القارئ ـ إلى الجهاد وأنا قابع فى مكانى ، سهل جدا أن أكتب لك أهازيج الحرية وأنا على مكتبى ، فى حجرتى .. ولكنه صعب أن يتقدم الرجل لا لكى يقول للناس : جاهدوا بل لكى يجاهد فعلا : فيجاهدوا وراءه . لا لكى يقول للناس تحرروا ، بل ليقتحم الاسوار فعلا فيزحفوا خلفه .. صعب جدا أن يؤمن الزعيم بالدستور ، اذا كان هذا الدستور يقصيه عن الحكم ! ! وشىء من ذلك لم يصنعه أكثر خلفاء مصطفى وفريد .. بل جعلوا مبادئ الحزب الوطنى كلاما ، لا سلوكا .. وهذا هو سر الاحساس الذى ساد بين الناس بأن مبادئ مصطفى وفريد مبادئ نظرية فقط وليست عملية على الاطلاق ..

وهذا غير صحيح ! .. وتعال ـ أيها القارئ ـ فتأمل كيف كان فريد بالذات ، واقعيا عظيما .. وأن واقعيته هى التى أفزعت الاستعمار ، والطغيان ، وجعلتهما يتربصان له فى هذه القضية .

كان محمد فريد من الذين أدركوا ادراكا علميا عميقا حقيقة المسألة المصرية بعد الاحتلال الانجليزى ، فعرفوا الطريق ـ أسلم الطريق ـ إلى تحقيق المستقبل المصرى . انبعث مصطفى كامل كالشعلة توقظ الرقود وتنير الطريق ، ثم انطفأ ولم يقف فى هذا الومض طويلا عند فكرة خصبة .. مما جعله يتخبط بين تأييد الخديوى ، وتأييد الباب العالى التركى ، والاستعانة بفرنسا .. وجاء فريد ليضع النقط على الحروف التائهة ، ليرسم للبعث المرتقب وسائله وغاياته ، وجرت المسألة فى ذهنه المنطق المستنير كالآتى :

إن غاية الحياة السياسية أن تحقق للشعب حياة سعيدة موفورة . وقد أثبتت كل تجارب البشر ، فى كل بقاع الارض ، أن الحياة السعيدة الرضية الموفورة لا تتحقق للشعب الا اذا كان سيد نفسه . أما أن تحكم مصر دولة أجنبية فان معنى ذلك استغلال مصر وشعبها لحساب هذه الدولة الأجنبية ، وسواء سمى هذا الحكم الأجنبى « استعمارا » أو « حماية » أو « انتدابا » أو « مساعدة » . أما أن تحكم مصر فئة معينة محدودة منه ، تنفرد بالرأى فيه : أسرة مالكة أو طبقة معينة أو حزب واحد ، فلن ينتج ذلك الا توجيه الدولة كلها ، تدريجيا ، لحساب هذه الاسرة المالكة ، أو الطبقة المعينة ، أو الحزب الواحد ! قد يكون الشعب فقيرا ، زريا ، جائعا .. قد تكون نسبة الأمية فيه غالبة .. ولكن أن يسير الشعب متخطبا متعثرا بطيئا فى الطريق المؤدى إلى مصلحته ، خير من أن يسير بسرعة فى طريق لا يؤدى إلى مصلحته قط . فلابد أذن أن يتحرر الشعب من كل سيطرة أجنبية ، ولا بد أن يصبح ابناؤه جميعًا

شركاء فى الحكم ، متساوين فى الحقوق والواجبات ، متساوين فى القوة والحرية .

ووسيلة التحرر من كل سيطرة أجنبية هى : الجلاء ..

ووسيلة المساواة والمشاركة هى : الدستور ..

وأعلن فريد أن مطالب مصر هى : الجلاء والدستور . لا ترضى بأحدهما بديلا عن الآخر ، ولا تلهيها المطالبة بأيهما عن الثانى .. هما سويا ، هما معا ، لغاية واحدة فى طريق واحد ! .

تلك هى الأهداف التى وضعها محمد فريد . وانظر بعد ذلك إلى وسائله لتحقيق هذه الأهداف : إنها تعليم الشعب على قدر الطاقة ليكون أكثر بصرًا بحقوقه ، وتكتيله فى تشكيلات ليكون أكثر قوة وأرتباطًا ، ثم توجيهه إلى هذه الأهداف فى قوة متدرجة منظمة راسخة ..

لقد أنشأ فريد مدارس ليلية فى الاحياء الشعبية لتعليم الأميين الفقراء مجانا .. وعهد بالتدريس فيها إلى رجال الحزب الوطنى وأنصاره .. فكنت ترى المحامى الكبير أو الطبيب الناجح ، يخصص من وقته ساعة أو بعض ساعة كل مساء ، يقف فيها فى حجرة ضيقة خشنة بسيطة يعلم الفقراء مبادئ القراءة والكتابة وجغرافية بلادهم وتاريخها .. وأنشأ أول الأمر أربع مدارس فى بولاق والعباسية والخليفة وشبرا ، ثم انتشرت مثيلاتها فى الأقاليم .

ووضع فريد اساس حركة النقابات .. فأنشأ أول نقابة للعمال فى سنة ١٩٠٩ وهى نقابة عمال الصنائع اليدوية ووضع لها قانونا وأنشأ لها ناديا .. ثم انتشرت النقابات ..

ثم أتجه إلى الزحف السياسى .. دعا الوزراء إلى مقاطعة الحكم وقال «من لنا

بنظارة (أى وزارة) تستقيل بشهامة وتعلن للعالم أسباب استقالتها ؟ لو استقالت وزارة بهذه الصورة ولم يوجد بعد ذلك من المصريين من يقبل الوزارة مهما زيد مرتبه ، اذن لاعلن الدستور ، لنلناه على الفور .. »

وعرفت مصر ، لأول مرة ، المظاهرات الشعبية المنظمة .. كان فريد يدعو إليها... وتجتمع فى حديقة الجزيرة عشرات الآلاف ، ثم تسير إلى قلب القاهرة هاتفة بمطالبها ، مشتبكة بالبوليس ، مضحية بالعشرات ..

ووضع صيغة موحدة للمطالبة بالدستور ، وطبع منها عشرات الآلاف ، ودعا الشعب إلى توقيعها وإرسالها إليه ليقدمها إلى الخديوى ، كى تكون جماعية تطالب « بإنشاء مجلس نيابى يكون عونا لحكومتكم السنية على نشر العلوم والمعارف ويساعدكم على ترقية البلاد .. وأنت يا مولاى الأمير خير من يقدر الدستور قدره .. » ونجحت الحملة ، وذهب فريد إلى القصر يسلم أول دفعة من التوقيعات : ٤٥,٠٠٠ توقيع .. ثم الدفعة الثانية ١٦,٠٠٠ .. ثم ..

وفى شوارع القطر سارت المظاهرات تنادى بالدستور لأول مرة .. لا يذهب الخديوى إلى مكان الا لتتهاطل عليه بطاقات مكتوب فيها «تكرموا بمنحنا الدستور» ، ولا يدخل شارعا الا ويهتف فى وجهه الناس : الدستور يا أفندينا ..

فهل يترك الاستعمار وسلطة الفرد ، هذا الموكب الحافل يمضى ؟ .. كلا ..

فما يكاد فريد يصل إلى القاهرة ، حتى تستدعيه النيابة لتحقق معه فى المقدمة التى كتبها لديوان الشعر .. ثم لا تمضى أيام حتى تحيله إلى محكمة الجنايات لتحاسبه على هذه السطور التى كتبها بعنوان «أثر الشعر فى تربية الأمم ! »

ماذا قال فريد فى هذه المقدمة ؟ .. أى جريمة ارتكبها وهو يتحدث عن الفن

الجميل ؟ .. لم يقل أكثر من أن الشعر يجب أن لا يكون مجرد كلام فارغ عن جمال الطبيعة ، أو نفاق رخيص فى مدح الملوك والوزراء .. بل يجب أن تكون له ـ كأى فن جميل ـ غاية أجتماعية تنفع الناس ، وتدفع المجتمع إلى الأمام ! « لقد كان من نتيجة استبداد حكومة الفرد أماتة الشعر الحماسى ، وحمل الشعراء بالعطايا والمنح على وضع قصائد المدح البارد والاطراء الفارغ للملوك والامراء والوزراء ، وابتعادهم عن كل ما يربى النفوس ويغرس فيها حب الحرية والاستقلال .. كما كان من نتائج هذا الاستبداد خلو خطب المساجد من كل فائدة تعود على المستمع ، حتى أصبحت كلها تدور حول موضوع التزهيد فى الدنيا ، والحض على الكسل وانتظار الرزق بلا سعى ولا عمل » !

ثم « .. تنبهت لذلك الأمم المغلوبة على أمرها ، فجعلت من أول مبادئها وضع القصائد الوطنية والاناشيد الحماسية باللغة الفصحى للطبقة المتعلمة ، وباللغة العامية لطبقات الزراع والصناع وسواهم من العمال غير المتعلمين .. » . فالفن اذن يجب أن يكون للجميع .. الجاهل والمتعلم على السواء .. وليس ذلك كلامًا نظريا . فهو يضرب لنا مثلا واقعيا مشجعا « .. فما يزيد سرورى ، أن شعراء الارياف وضعوا عدة أناشيد وأغانى فى مسألة دنشواى ، وفى مصطفى كامل باشا ، وفى موضوع قناة السويس ورفض الجمعية العمومية لمشروعها .. وأخذوا ينشدونها فى سمرهم وأفراحهم على آلاتهم الموسيقية البسيطة .. وهى حركة مباركة .. تبشر باقتراب زمن الخلاص من الاحتلال ومن سلطة الفرد .. بأذن الله» .

هذا الرأى لم يعجب النيابة العامة ، ولا وكيل النيابة توفيق نسيم .. وهو ـ فى الحقيقة ـ لا يعجب الكثيرين من الناس ـ حتى الان ـ ومنهم الفنانون الكبار ! فأنت تسمع عن مدرستين فى الفن والادب : مدرسة تقول أن « الفن للفن»

ومدرسة تقول أن الفن للمجتمع . وأصحاب مذهب «الفن للفن» يعتقدون أن الفنان ـ كاتبا أو شاعرا أو رساما ـ ليس له أن يهتم بمشاكل الناس السخيفة ، وهمومهم الثقيلة .. إنما مهمته أن ينتج لنا شيئًا جميلا ، فحسب . شيئا نجد فيه المتعة ، والتسلية ، وتزجية الفراغ .. شيئا للزينة والتظاهر .. تماما كالمجوهرات للنساء المترفات . أما أصحاب الرأى الثانى فيقولون أن الفن يجب أن تكون له رسالة اسمى من مجرد الامتاع . وأن الفنان يجب أن يقدم إلى جمهوره شيئا يمتعه ويفيده .. شيئا يعمق احساسه بالحياة ويدفعه إلى التقدم والارتقاء . ولم يكن وكيل النيابة ـ لسوء الحظ ـ من المؤمنين بهذا الرأى ، بل كان يفضل ـ وهو يمثل حكومة مستبدة ـ أن لا تكون للفن رسالة أكثر من تسلية الناس ، وحملهم على الاستكانة ، وصرفهم عن حقيقة مشاكلهم .

ووقف توفيق نسيم فى الجلسة يصب غضبه وغضب حكومته على فريد : «فريد بك الماثل أمامكم هو صاحب المقالة الأولى ، دفعته ثورة الحماس فاطلق العنان لدوافع النفس ، وصدر مقالته بذكر الخطوب والحروب ، ودعا الشعراء إلى اجتناب مدح الوزراء ! ولم ير بعين بصيرته اثرا فى النفس الا لذلك الشعر الذى يشجع على القتال . لم لا يكون الشعر ذلك الخيال الذى يرى الإنسان الطبيعة بجمالها ، وينظم فى المواضيع الشريفة كتثقيف العقول وتهذيب النفوس؟ .. لماذا تكون تربية الأمم بالشعر الحماسى؟ » .

«ما خطب فريد بك وماذا يريد؟ .. يريد أن يدخل الوطنية فى القلوب . ولكن كيف يريد ذلك؟ .. أيريد أن يدخلها على يد الغاياتى ، ذلك الرجل أضناه الجوع وأرهقه الظمأ(! !) فلم يجد ما يدفع به أذاهما عن نفسه الا أشعاره التى سود بها صفحات كتابه ، والله يعلم أنه لم يسود الا صفحات قلبه الاثيم؟ .. أم يريد أن

يدخلها على يد أولئك الشعراء الذين يفرحون بصرخة أوكلمة فى فضاء المحافل ممن تلعب الوطنية بفؤاده من شدة التحمس، كما تلعب الكأس برأس صاحبها ؟ » فالمبالغة فى الوطنية فى رأى وكيل النيابة كالخمر تذهب بالعقول ! .. وهو لذلك يختم مرافعته قائلا لمحمد فريد : « فلتكن هذه الدعوى الحاضرة لك أنت أيها الواقف أمام القضاء عبرة ونذيرا للمستقبل ، وليكن اليوم عظة للغد ، ليكفيك الله بعد ذلك شر ما تأتى به الخطيئات ! ! » .

بماذا يرد ذلك الرجل الواقف فى قفص الاتهام : بطربوشه المائل ، وشاربه الوقور ، ونظارته المذهبة ، والياقة المنشاة العالية .. والطلعة المهيبة ؟ .. ماذا يقول ، والانظار كلها فى القاعة تلهث متعلقة به ؟ .. إنه يرفض الدفاع عن نفسه بكلمة واحدة . وقبل ذلك رفض أن يدافع عنه أى محام. أنه يزدرى كل هذه التمثيلية ويقف أمام قضاته هادئا ، صامتا بلا دفاع ! .

وماذا تريد منه أن يقول ؟.. هل يتنصل من تهمة الوطنية؟ هل يعترف بأن المبدأ الذى يعتنقه جريمة ؟ .. أم هل يمن على المصريين ويتحدث عن جهاده ، وعمره الذى يبذله من أجلهم ؟ .

لا شىء من ذلك قط .. فهو الصمت البليغ .

وخلت المحكمة للمداولة فلم يطف بخاطرها سبب واحد للرأفة . بل وجدت أن « وفرة معارفه وسعة تجاربه ، تجعله أكثر تقديرا وأعظم مسئولية » أى تستوجب تشديد الحكم . وخرجت إلى القاعة تنطق بالحكم : الحبس ستة شهور ! .

ووجمت القاعة فى لحظة الصدمة ، ثم ارتفع البكاء ، : جهش المتفرجون ، والجنود المدججون .. ارتفع النحيب من كل صدد فلم تبق الا القضبان ، والواقف خلف القضبان .. الذى التفت إلى الحاضرين ولا مهم فى جلال على هذا البكاء ..

وادار للجميع ظهره ، يحوطه الجند ، يخطو خطوات ثابتة إلى السجن .. فقد كان السجن أحب إلى نفسه مما يدعونه إليه ! .

وذهب فريد مخفورا إلى سجن الاستئناف فى باب الخلق .. وأصبح اسمه السجين رقم ١٩٨ . الزنزانة ٤٤ ! .. وبدأت «المفاوضات» معه ..

يروى عبد الرحمن الرافعى فى كتابه «جاء كولسن باشا مدير مصلحة السجون إلى محمد فريد وخلا به فى غرفته وسأله عما يحتاج إليه من أسباب الراحة ، ثم أمر عبد الرحمن أفندى سرى مأمور السجن بالابتعاد عنهما ففعل ، وبدأ كولسن باشا يتحدث إليه بالفرنسية قائلا : «أننى أسعى للعفو عنك اذا وعدت بتغيير خطتك» ، فأجابه فريد «أن ما تطلبه مستحيل ! » فعدل كولسن باشا وقال «أننى لا اطلب منك تغيير مبادئك بل تخفيف لهجتك» فرفض . فقال له كولسن باشا «أنت أذن تريد قضاء الستة شهور فى السجن» فقال الزعيم «نعم .. وأزيد عليها يوما لو أردتم ! ! ..» .

«وأكثرت الصحف ـ وبخاصة الجريدة وكان رئيس تحريرها أحمد لطفى السيد ـ من التحدث عن العفو عنه والدعوة إليه ، فاستدعى فريد من قال له : «أرجو أن تبلغوا لطفى السيد بك أن يتحاشى طرق هذا الموضوع ، فان هذا ما لا أقبله ولا أرغب فيه» .

«وبعد بضعة أسابيع زاره فى السجن الدكتور عثمان بك غالب موفدا من قبل الخديوى ، يعرض عليه من جديد مسألة العفو وقال له : أن الخديوى مستعد للعفو عنه اذا قدم طلبا بذلك . فقال فريد : «أنا لا اطلب العفو ، ولا أسمح لاحد من عائلتى بطلبه عنى ، واذا صدر العفو فلن أقبله ! » .

ومرت الشهور الستة .. وجاء يوم ١٧ يوليو الذى يجب أن يفرج عنه فيه ..

وتجمع الناس فى ميدان باب الخلق .. وأقبل الليل .. وجلس الناس على الارصفة والمقاهى .. وناموا بجوار الجدران .. وعيونهم لا تبرح باب « المحافظة » الكئيب .. ويئست السلطة من انصراف الناس ، فلجأت إلى حيلة أخرى تتلافى بها احتفال الناس بخروج الزعيم .. اذ خرجت فى نفس الوقت سيارتان مغلقتان ، متشابهتان ، وانطلقت كل منهما فى طريق . وحار الناس لحظة ، فى أى عربة جلس فريد ؟ .. ثم لمحه واحد من الناس فصرخ ، وجرى خلفه الباقون ، وكانت الساعة الخامسة صباحا .. وتيقظت المدينة على مظاهرة مبكرة ، تتكاثر وتتسع ، حتى وصل فريد إلى بيته فى شبرا ..

ماذا يقول ؟ ..

أنه يجلس إلى مكتبه ويكتب « مضى على ستة أشهر فى غيابات السجن ، ولم أشعر أبدا بالضيق الا عند اقتراب أجل خروجى ، لعلمى أنى خارج إلى سجن آخر ، وهو سجن الأمة المصرية ، الذى تحده سلطة الفرد .. ويحرسه الاحتلال ! » .

ثم يمضى قائلا فى هذا المقال ، الذى نشرته اللواء فى اليوم التالى ، قائلا « حقيقة .. لم أشعر بأى انشراح عند حلول أجل مفارقتى لهذه الغرفة الضيقة التى قضيت فيها مائة وستة وسبعين ليلة كاملة ، لعلمى أنى خارج إلى سجن أضيق ، ومعاملة أشد .. أن اصبح مهددا بقانون المطبوعات ، ومحكمة الجنايات .. محروما من الضمانات التى منحها القانون العام للقتلة وقطاع الطرق .: فلا أثق أنى أعود لعائلتى أن صدر منى ما يؤلم الحكومة من الانتقاد ، بل ربما أوخذ من محل عملى إلى النيابة ، فالسجن الاحتياطى ، فمحكمة الجنايات ، إلى السجن النهائى ! .. وستبقى حالتنا كذلك حتى نسترد حريتنا » .

وكأن فريد فى هذه الكلمة الحزينة يقرأ الغيب . فبعد ثمانية أشهر فقط من مبارحة هذا السجن سيصنعون به هذا الذى يتنبأ به .. وسيترك عائلته .. إلى غير عودة ! ..

ولم يكن غريبا أن يتنبأ فريد بما سوف يحدث له .. فهو لا ينوى التخلى عن رسالته ولا العدول عن المطالبة بالجلاء والدستور . والانجليز والحكومة المصرية على السواء لا ينوون أن يحققوا الجلاء .. ولا الدستور .. فمن المستحيل اذن أن يتركوا هذا الداعية يثير الناس ، وينشر الوعى .

وفى شارع الصنافيرى ، بالقرب من مبنى قسم عابدين الحالى ، وقف محمد فريد فى أنصاره يخطب وكان اليوم يوم جمعه ، ٢٢ مارس سنة ١٩١٢ . وكان خطابه شاملا تحدث فيه عن الجلاء ، والدستور ، والاستعمار الاقتصادى الاجنبى ، والحالة التعسة التى يعيش فيها العامل والفلاح .

«انظروا إلى تحكم الشركات الاجنبية فى العمال ، انظروا إلى الفلاح ، وما يفرضه عليه مالك الارض من الايجار الباهظ ، تجدوا أنهم فى أحط دركات الفقر . العامل لا يحصل على قوت يومه الا بعد أن يشتغل اثنتى عشرة ساعة كل يوم ، والفلاح لا يصل إلى ما يسد الرمق من أردأ أنواع الخبز بلا ادام الا بشق الانفس ، وكل ذلك ناشىء عن فقدان مبدأ الأجتماع ، وفقدان التضامن بينهم .. والاحتلال يريد أن تبقى تلك الطبقة كقطيع الغنم ، يؤمرون فيطيعون ، عائشين عيشة السائمة ، جاهلين حقوقهم وحقوق بلادهم» ..

ومرة أخيرة ، أكد فى اصرار لا يتزعزع ، إنه «لا دواء لهذا الداء العضال .. الا الدستور» .

ونشطت الحكومة للعمل .. ففى يوم ٢٥ مارس استدعته النيابة للتحقيق معه ..

وهاجم البوليس بيته يفتشه ، ويقلب أثاثه ، ويمزق أوراقه ، ويروع الاطفال .. وكان وزير (الحقانية) فى ذلك الوقت : سعد زغلول ! .. وكان وكيل النيابة الذى يحقق مع محمد فريد : على ماهر ! ..

وكان سعد زغلول وزير العدل فى أزمة مع الانجليز لبعض تصرفاتهم التى يتخطونه فيها . وكان التحقيق مع فريد أحد هذه التصرفات. اذا أتصل رئيس الوزارة ـ محمد سعيد باشا ـ بالنائب العام رأسا للتحقيق مع فريد .. وتراكمت أسباب أخرى فاستقال سعد زغلول من الوزارة .

وذاعت هذه الأنباء ، وأدرك فريد وأصحابه أن النية مبيتة على سجنه وتقييد حريته بأى شكل ، وأصبح عليه أن يختار ، أصعب أختيار تعرض له فى حياته : هل يبقى فى مصر ، مغامرا بحريته التى سوف تضيع فلا يستطيع أن يصنع لوطنه شيئا ؟ أم يفر بعقيدته من مصر ، مضحيا بوطنه وأسرته ، محتفظا بحريته ؟ ..

كان عليه أن يختار بسرعة ، وأن يتخذ قرار العمر كله فى دقائق .. فالبوليس قد يطرق الباب فى أى لحظة ، وأمر القبض عليه مكتوب فعلا .. ولم يكن بد من أن يختار الطريق الاصعب الابهظ ، كما صنع دائما : وآثر الحرية ..

وأخفى النبأ عن الجميع حتى أقرب الناس إليه .. وسهر آخر ليلة فى أرض وطنه والبروق تخطف فى باطنه .. فلما أشرق الفجر أيقظ زوجته ، وأنباها بالقرار الخطير فى كلمات قليلة هامسة .. وهم بأن يوقظ بناته وأبناءه ليودعهم ، ولكنه خاف أن يضعف .. وخرج مسرعا إلى محطة القاهرة ، وركب قطار السابعة صباحا الذاهب إلى الاسكندرية ، بحجة أنه ذاهب للمرافعة فى بعض القضايا .. ومن محطة الاسكندرية قصد إلى الميناء فورا ، زاعما هذه المرة أنه سيودع صديقه «اسماعيل بك لبيب» المسافر على الباخرة الروسية «الملكة أولجا» ولم يقطع لنفسه تذكرة حتى

لا يكتشف الامر .. واعتكف فى حجرة صديقة اسماعيل لبيب ساعات قليلة .. لا يجسر فيها على أختلاس نظرة واحدة إلى وطنه .. فلما اقلعت الباخرة .. وأصبحت نقطة صغيرة لا يحيط بها الا البحر والسماء .. أبرز نفسه لقبطانها ، وشرح له الموقف باختصار .. وانحنى ربان السفينة «الاجنبى» للمهاجر الكبير ، وعاملة طوال الرحلة باحترام شديد ! ..

وفر الصيد الثمين من قبضة الحكومة ! ولكن الحكومة يجب أن لا تتقهقر. فالمحكمة يجب أن تعقد ، والحكم يجب أن يصدر .. ولو غيابيا .. ثم أن ها هنا أنصاره لم يبرحوا مصر بعد .. هذا على فهمى كامل شقيق مصطفى كامل ومدير جريدة (اللواء) ، وهذا اسماعيل حافظ صاحب جريدة العلم ، يمكن تقديمها إلى المحاكمة بتهمة نشر الخطبة فى جريدتهما .. الخطبة التى نادى فيها فريد بالجلاء والدستور ..

وانعقدت محكمة الجنايات ، بعد أربعة أيام فقط من هجرة فريد ، برئاسة مستر دلبروجلى وعضوية على بك ذو الفقار ، وتوفيق باشا رفعت .. وقد مثل النيابة فى قضية فريد الأولى توفيق نسيم الذى أصبح فيما بعد رئيسا لديوان الملك .. فمن يمثل النيابة هذه المرة ؟ .. (بطل) آخر سوف يصبح أيضا ناظرا لخاصة الملك : زكى الابراشى ..

أما الدفاع عن فريد وصحبه فقد قام به رجلان : عبد العزيز فهمى ومحمود بك أبو النصر ..

ووقف ممثل الاتهام فبدأ مرافعته بالحملة على (الصحافة التى تتعدى حدودها فتنقلب شرا على الأمة) .. ثم بدأ يناقش خطبة فريد ليثبت أنها تنطوى على أكثر من جريمة : فقد قال فريد فى دفاعه أنه لم يفعل أكثر من انتقاد الحكومة .. ولكن

ممثل النيابة يرى أنه قد تخطى حدود النقد المباح « .. أنه يرمى الحكومة بعرقلة المشروعات عمدا مع سوء القصد .. فى حين أن النقد المباح هو ذكر مشروع من المشروعات وذكر ضرره ووجوه تلافى هذا الضرر .. » .

ثم أن فريد قد طالب بالدستور .. وهذا ـ فى رأى ممثل النيابة ـ هو الجرم الأكبر : « لقد قال فريد بك إنه لا دواء لهذا الداء الا بالدستور .. وهذا هو قصده بينه صراحة فى قوله ! ..وقد يقال إن فريد بك حسن القصد بالنسبة لحزبه وأمته ، ولكن لا يمكن أن يقال الا أنه سىء القصد بالنسبة لحكومته ؟ .. » .

هل فهمت ماذا يريد ممثل النيابة أن يقول ؟ .. أنه يرى أن مطالبة فريد بك بالدستور قد يكون القصد منها مصلحة أمته ، ولكن هذه المطالبة لا شك ضد مصلحة الحكومة ! .. وعلى هذا يجب أن يعاقب فريد ! ..

وألقى عبد العزيز فهمى مرافعة بليغة ، استهلها قائلا : «حين وكلت فى هذه القضية كانوا يقولون لى : كيف تتوكل فيها ؟ .. الا ترى أن المادة ١٥١ لا حد لها ؟ .. فكنت أهز كتفى للقائلين وجئت واثقا بعدالتكم معتقدا أن موكلى سيخرج من هذه التهمة بريئا .. وإن لى سؤالا أحب أن القيه على حضراتكم : هل للحكومة أن تتصرف تصرفا مطلقا بغير انتقاد ؟ .. لقد كفتنى النيابة مؤونة هذا الجواب حين قالت أن الإنسان فى هذه الحياة سلسلة حوادث يمكن انتقادها .. » .

وخلت المحكمة للمداولة ثم خرجت لتحكم على فريد ـ غيابيا ـ بالحبس سنة .. مع الشغل ! .. وعلى إسماعيل حافظ وعلى فهمى كامل بالحبس ثلاثة شهور ..

وهكذا كان يطارد لأنه ينادى بالجلاء ، والدستور وبرسالة نبيلة للفن الجميل .. ويحرم لهذا السبب من الحياة فى وطنه ، بينما يترك وطنه مرتعا للنصابين العالميين واللصوص الدوليين ، والمستبدين المحليين ! ..

وصدرت (اللواء) فى اليوم التالى ، تقول .. والدموع فى مآقيها :

«سيرى أيتها الأمة ولا تقفى فى الطريق أبدا .. سيرى إلى حيث تجدين الرحمة جزاء ، والحرية رداء ..

سيرى فان لك أسوة حسنة بكل شعب أراد الحياة ..

سيرى فان فى الجهاد لذة غريبة دونها أى لذة فى الوجود ..

سيرى ولا تتخلفى فى الطريق ، ولا تقولى أبدا : لقد طال الانتظار ! .. » .

امبراطورية زفتى !

الساعة التاسعة ، واليوم الأحد ٩ مارس .. سنة ١٩١٩ ، صباح ليس باردا ولا حارا ، ولكنه دافئ لذيذ ..

وفى فناء (مدرسة الحقوق) بالجيزة ، يتجمع الطلبة بسرعة .. وقد دق الجرس مؤذنا ببدء المحاضرات ولكن المدرجات بقيت خالية ، وظلوا يتجمعون فى الفناء ، وأحاديثهم ترتفع حرارتها وتكاد تلتهب .. فقد اعتقل سعد زغلول وبعض أصحابه . والنبأ لم تنشره الصحف ، فالرقابة مفروضة ، لكن بعض الطلبة رأوه بأعينهم ، عصر الأمس ، يركب سيارة انجليزية أمام بيت الأمة ، والجنود الانجليز من حوله قد رشقوا الحراب فى أطراف البنادق ، والناس طول الليل يتناقلون النبأ .. والمدينة كلها باتت مؤرقة من الجزع ..

ماذا يصنعون ؟ ..

أن عميد المدرسة ـ مستر دالتون ـ يخرج إليهم محاولا أن يكبح العاصفة قبل أن تهب ..

قال لهم : اتركوا السياسة لآبائكم ..
فقالوا له : ان آباءنا باتوا فى السجون ! .
قال لهم : عودوا إلى دروسكم ..
فأجابوه : لا ندرس القانون فى بلد تداس فيه القوانين ! .
نعم .. ولكن ماذا يصنعون ؟ ..

أنهم لو سكتوا الآن فقد ضاعت القضية لسنوات طويلة .. هل يخرجون فى مظاهرة ؟ .. إلى أين ؟ .. والشوارع التى تعج بجنود الامبراطورية المنتصرين ؟ .. والشعب الذى طال رقودة فمن غير المؤكد أن يثور ؟ .. أن المسألة كلها تبدو تجربة جديدة ، غريبة ، ليس لها سابقة واحدة يمكن أن تكون هدى .

فليسألوا أذن أعضاء الوفد الباقين .. ويطير بعضهم إلى بيت الأمة .. وفى الشرفة يلقون عبد العزيز فهمى زميل سعد القديم فى الجمعية التشريعية .. ناحلا ، مهزوزا ، تالف الأعصاب .. وينقضون عليه بأنباء زملائهم وعزمهم على الخروج .. ويفلت زمام عبد العزيز فهمى « إنكم تلعبون بالنار ! .. دعونا نعمل فى هدوء ولا تزيدوا غضب الانجليز ! » .

ويعود الطلبة مقهورين ، مغمومين ، يتعثرون ، فماذا يقولون لزملائهم ؟ .

ولكنهم لا يمضون قليلا حتى تترامى إليهم أطراف هتاف : يحيا سعد ! .. يحيا الاستقلال ! .. ثم تطالعهم وجوه أخوانهم يملأون الطريق ..

لقد قلق الطلبة ولم يصبروا .. واعتلى بعضهم النوافذ والمقاعد وبدأ يخطب .. ولم ينتظروا رجع المشورة فتدفقوا من باب الجامعة خارجين ، هاتفين ..

وانفجرت الثورة .. أول ثورة شعبية منذ قاوم أهل القاهرة نابليون ! ..

فبعد طلبة الجامعة ، أضرب سائر الطلبة فى جميع المدارس ، ثم أضرب سائقو الترام ، والاوتوبيس ، والتاكسى ، ثم المحامون . وسجل قسم السيدة زينب فى اليوم التالى مصرع أول شهيد مجهول الاسم ـ وبعد يومين صدر أول بلاغ حربى يطلق على الثوار اسم « الرعاع » ، ويؤكد أنه « لم تحدث غير ست وفيات و ٣١ أصابة ! » .

ثم مضت أرقام القتلى ترتفع :

طنطا فى ١٢ مارس : ١٦ قتيلا و ٤٩ جريحا .

اسكندرية فى ١٧ مارس : ١٦ قتيلا و ٢٤ جريحا و ٤١٥ معتقلا ..

دمنهور فى ١٧ مارس : ١٢ قتيلا .

بور سعيد فى ٢١ مارس : ٧ قتلى و ١٧ جريحا .

وهذه ـ كلها ـ أرقام البلاغات الرسمية الانجليزية فقط ..

وتحولت هذه الأرض الطيبة كلها إلى بركان رهيب لا يكف عن الاشتعال ..

شوارع القاهرة كلها تموج بسيل من المظاهرات : هذه مظاهرات السيدات ، لابسات اليشمك والحبرة فى شارع إبراهيم .. وطلبة الأزهر يتلقون الرصاص ويخطفون المدافع الرشاشة من الجنود الانجليز فى شوارع الغورية .. وعمال عنابر السكك الحديدية يزحفون على ميدان باب الحديد . والأهالى يحفرون الخنادق فى الحسينية والجمالية وباب الشعرية ربما فى نفس الأماكن التى قاتلوا عندها جنود نابليون منذ أكثر من مائة سنة .

أنشأ الأنجليز محكمة عسكرية فى قسم الازبكية تحاكم الثوار وتحكم عليهم فورا بالسجن والجلد . ولم تكف محكمة واحدة فأنشأوا محكمة أخرى فى الخليفة ثم فى القناطر الخيرية ثم بنها .. ثم تعبوا من انشاء المحاكم .

وأخرجت شركة الترام بضع عربات يقودها الجنود الإنجليز وتحرسها سيارات مسلحة بالمدافع الرشاشة فامتنع الأهالى عن ركوب الترام . وأصبح منظرها وهى تسير خالية الا من الجنود الانجليز مضحكا .. ولجأ المصريون جميعا إلى استعمال العربات «الكارو» فكنت ترى كبار الموظفين إلى جانب بنات البلد يجلسون على عربات الكارو ويتبادلون آخر الانباء .

واندلعت الثورة فى الأقاليم كلها اندلاعا لم يكن يحلم به أحد .

خرج الفلاحون من الحقول ، واقتلعوا خطوط السكك الحديدية ... اقتلعوها أولا بين طنطا وتلا ثم انتشرت العدوى .. وانقطع خط الصعيد كله .. وأحرقت محطات السكك الحديدية .. وأصبح السفر متعذرا الا بالمراكب فى النيل والترع .. وأنذر الانجليز باحراق أقرب قرية من كل نقطة يقطع فيها الخط . فلم تنقطع المقاومة ..

وفى غمرة هذا كله. نجد أعضاء الوفد ، والوزراء السابقين ينظرون إلى العاصفة فلا يدركونها أول الأمر ، ويحسبونها مجرد شغب عابر ، فيصدرون بيانا «.. أن الاعتداء على الأنفس أو على الاملاك محرم بالشرائع الالهية والقوانين الوضعية ! وأن قطع طرق المواصلات يضر أهل البلاد ضررا واضحا اذ يحول بينهم وبين مباشرة مصالحهم ، ويوقف حركة نقل المحاصيل والارزاق . ومثل هذا العداء يضيع على المصريين ما ينتظرونه من العطف عليهم ! » .

ولكن العاصفة ترفض هذا المنطق ولا تقف عنده . فى اليوم التالى يهجم الاعراب على مراكز البوليس فى الفيوم وتدور معارك عنيفة يقول البلاغ الرسمى إنه سقط فيها ٤٠٠ من القتلى والجرحى ! .

وفى مدن الصعيد .. ينكمش الانجليز ويتحصنون فى بيت ، أو مدرسة ، ويحاصرهم الأهالى .. ويرسل الانجليز طالبين المدد .

وفى أسيوط تقع أعنف الحوادث .. هجم الثوار على مراكز البوليس واستولوا على السلاح .. وتكونت لجان من المحامين تحافظ على الامن وتباشر مسئوليات الحكم .. وانكمش الانجليز من مدنيين وعسكريين فى أحدى المدارس .. والأهالى يشنون عليهم الهجمات المسلحة يوما بعد يوم ..

وأرسل الانجليز طائرتين قذفتا أسيوط بالقنابل فلم يتراجع الثوار ..

وأرسلوا قطارا مسلحا غاصًا بالجنود .. وعند قرية دير مواس هجم عليه الفلاحون وأوقفوه .. ودارت معركة رهيبة سقط فيها القواد والضباط الانجليز بالعشرات قتلى ..

ولجأ الانجليز إلى إرسال سفينة مسلحة فى النيل لتصل إلى أسيوط .. ومرة أخرى ، عند ديروط ، هبط الشاطئ آلاف من الفلاحين بالبنادق القديمة والعصى يتصدون للسفينة .. وسبح مئات منهم فى الماء مستبسلين يريدون الاستيلاء على السفينة ذاتها .

وتفلت السفينة من هذه المعركة ، وتتعرض لهجوم آخر مشابه عند (نزالى جنوب) .. قبل أن تصل منهكة ، مثخنة بالجراح ، لانقاذ المحاصرين فى أسيوط ! ..

تلك كلها ــ أيها القارئ ــ لمحات يسيرة من تلك الثورة العظيمة ..

وتاريخ هذه الثورة لم يكتب بعد حتى الآن . لم يحاول أحد المؤرخين أن ينقب وراء سر هؤلاء الفلاحين الذين حاربوا فى دير مواس وحاولوا الاستيلاء على السفينة المسلحة فى ديروط ..

أن الكتب تقول أن هذا حدث عفوا .. وارتجالا بحتا .. وهذا مستحيل ! ..

لابد أنه كان هناك من ينظمون ويدبرون ويقتحمون المخاطر ، حتى تهاجم هذه

السفينة مثلا فى موضعين متوالين ، بنفس الأسلوب ، على شاطئ النهر..

ولسنا نريد لهذا التاريخ أن يكتب ، وبأدق التفاصيل ، لمجرد المباهاة ! .. ولا لتمجيد هؤلاء الأبطال .. فقد أدوا واجبهم ودفعوا أرواحهم ومضوا .. ولكننا نريد أن يكتب هذا التاريخ لتعود إلى هذا الشعب ثقته بنفسه . وليسكت الذين مازالوا يؤمنون بأن هذا الشعب خامل خانع ، لا يمكن أن يثور.. لا يمكن أن يستفزه طغيان ، أو ينتظمه كفاح ..

وقد حاولت أن أقدم لك ـ أيها القارئ ـ صورة عن إحدى قصص الكفاح المنثورة بالمئات فى قرى الريف .. واخترتها لانها طريفة فى نوعها ، ولانها تدل على كثير .

كانت هذه القصة فى (زفتى) ..

و (زفتى) و(ميت غمر) قريتان متقابلتان ، يفصلها النيل ويربطها كوبرى عتيق . وفى كل منهما مكتب محاماة لشقيقين شابين : يوسف الجندى فى ميت غمر وعوض الجندى فى زفتى . كلاهما من شباب سعد . وكلاهما له سابقة حماسة حوسب عليها .. ففى سنة ١٩١٣ دخل عوض الجندى قاعة الجميعة التشريعية وصفق لسعد ، وتضارب مع عضو من مؤيدى الحكومة لأنه كان يقاطع سعد بكثرة . وقبضوا عليه ، ووجهوا إليه تهمة تعليق منشورات على أسوار البرلمان . ويوسف ـ الاصغر ـ فصلوه فى سنة ١٩١٤ من كلية الحقوق ، لأنه حرض الطلبه على الاضراب .. احتجاجا على أعلان الحماية الانجليزية عقب ابتداء الحرب ..

ومنذ بدأت حركة الوفد والاثنان يترددان بين القاهرة والريف . ولمع يوسف بالذات فى جلسات ثائرة فى محلات (جروبى) ومجادلات فى حديقة بيت الأمة ، وفى خطب عنيفة على منبر الأزهر.. الذى كان قاعدة الثورة ، وعرفه سعد .

والكبار من أعضاء الوفد .. عرفوه ثائرا لا يهدأ . ليس فى وجهه الاسمر الا شىء واحد : العناد . ولا يخرج من كيانه النحيل الا أفكار متطرفة .

وانفجرت الثورة ويوسف الجندى فى قريته زفتى ، واتجهت إليه أنظار القرويين ينتظرون منه أن يصنع شيئًا . ولكن ها هنا فى جوف الريف لا يوجد انجليز يقاتلهم الفلاحون . والسكك الحديدية قد قطعها الفلاحون من القرى المجاورة فعلا . ومع ذلك فلابد من عمل شىء خطير ، ينطوى على معنى الثورة .

وقرر أن تعلن زفتى وميت غمر استقلالها .. وأن ترفضا الخضوع لاية سلطة أخرى . ثم ليأت الانجليز .

وبدأ الثائر الصغير يعمل . أعلن عن تشكيل لجنة للثورة من بعض الأعيان ، والافندية المتعلمين ، والتجار الصغار . عرفنا من اسمائهم : عوض الكفراوى ، الشيخ مصطفى عمايم ، إبراهيم خير الدين ، ادمون بردا ، محمد السيد ، محمود حسن .. واتخذت لجنة الثورة مقرا لها قاعة واسعة فى الدور الثانى من مقهى يملكه يونانى عجوز ، اسمه (قهو مستوكلى !) ..

واجتمعت لجنة الثورة وقررت أن تبدأ بوضع يدها على السلطة الفعلية بالاستيلاء على مركز البوليس . وزحف يوسف الجندى إلى المركز على رأس مظاهرة ضخمة ضمت كل الرجال ، وجيوش الصبية الصغار .. القليلون منهم حملوا بنادقهم القديمة وتسلح الآخرون بالعصى وفروع الاشجار والفؤوس .. وشاءت الظروف أن تجنب الدولة الجديدة اراقة الدماء .. اذ كان مأمور المركز رجلا وطنيا اسمه (اسماعيل حمد) ومعه معاون بوليس اسمه (أحمد جمعه) وخرج المأمور إلى المظاهرة ، وسلم يوسف المركز ، والسلاح ، وقيادة الجنود والخفراء .. ثم عرض

خدماته عليه .. كمستشار للدولة الجديدة يشير عليها بوصفه خبيرا بأحوال الادارة فيها ..

واتجهت المظاهرة إلى محطة السكة الحديدية والتلغراف فسيطرت على التلغرافات فورا ، واستولت على عربات السكة الحديد التى كانت واقفة مشحونة بالقمح ، تنتظر إرسالها إلى السلطات الانجليزية .

وبات على الدولة الجديدة أن تواجه مشاكلها الداخلية ! .. وجمع يوسف الاعيان ودعاهم إلى التبرع ليصبح للدولة خزانة .. وكانت هناك حركة تبرعات أخرى جارية لتمويل الوفد ، وكان يجىء إلى زفتى كل أسبوع مهندس من طنطا يتسلم التبرعات المتجمعة ، أسمه عثمان محرم ! وتبرع الاعيان أيضا للدولة الجديدة . وكان قصد يوسف الجندى من ذلك أن يوجد عملا للايدى الكثيرة التى تعطلت لظروف الثورة ، فلا تتحول إلى السرقة أو النهب .. فاستخدم الأموال المتجمعة ليوجههم إلى بعض الأعمال المفيدة ..

وردموا البرك والمستنقعات التى تحيط بالقرية ، والتى يئس الأهالى من مطالبة الحكومة بردمها منذ عشرات السنين ..

وردموا الشوارع التى كانت تنشع بالماء اذا كان الفيضان . وأصلحوا الجسور القريبة .. بل لقد أقامت (الدولة) كشكا خشبيا على ضفة النيل لتعزف فيه الموسيقى ! ..

ثم جندت لجنة الثورة كل التلاميذ والمتعلمين الموجودين فى القرية وقسمتهم إلى فرق : فرقة تقوم بدوريات مستمرة لحفظ الامن .. وفرقة تراقب الحدود لتمنع تسرب مواد التموين أو دخول الجواسيس ! وفرقة تشرف على عمليات الرى وتزويد الارض بالماء .

وظهر أن فى قلب زفتى توجد مطبعة ! .. مطبعة صغيرة يملكها (محمد أفندى عجينة) أخذت تطبع قرارات لجنة الثورة وتعليماتها وأخبارها وتوزعها على الناس . وقد ظلت هذه المطبعة بعد ذلك مؤسسة وطنية خطيرة فى حياة زفتى .. تطبع المنشورات السرية فى مختلف عهود الاقليات .. وما تزال موجودة إلى اليوم .

وطارت الانباء إلى القاهرة .. وعبرت البحار إلى لندن .. ونشرت (التيمس) فى صدرها أن قرية زفتى قد أعلنت استقلالها ، ورفعت على مبنى المركز علما جديدا ! .

ولم يكن نفوذ زفتى مقصورا على حدودها .. فقد كان بريق مقاومتها يرسل ضوءه إلى القرى المجاورة فى صور أخرى .. فنحن نجد أن أحد البلاغات الانجليزية الرسمية يعلق على مذبحة ميت القرشى التى راح ضحيتها مائة قتيل بقوله أن «ميت غمر لا تزال مع زفتى وميت القرشى مركزا للتمرد والفتن فى هذه المنطقة» .

وأعلن فى القاهرة أن فرقة كبيرة من الجنود الاستراليين سوف تذهب إلى زفتى لتخضع القرية الثائرة .. وأدرك رجال الوفد مدى الخطر الذى يتعرض له يوسف ، فأرسلوا له الرسل والرسائل لكى يعود إلى القاهرة .. وسافر إلى زفتى أخوه عوض الجندى ـ وكان فى القاهرة ـ ولما كانت المواصلات مقطوعة والتنقل داخل القطر ممنوعا الا لمن تمنحه السلطات الانجليزية جواز سفر ! فقد ركب عربة كارو إلى قليوب ، ثم مركبا نيليا إلى بنها ، ثم عربة حنطور إلى زفتى ..

وصل إلى زفتى ليجد قاعة الثورة فى مقهى مستوكلى يسبح فى جوها دخان السجاير .. وليرى أخاه الصغير يوسف قد زاد نحولا ، واستطالت لحيته .. والأوامر تصدر من الغرفة متتابعة .. وليرى الفلاحين يحفرون حول دولتهم الخنادق ،

وينقلون إليها البنادق القليلة .. والذخيرة العتيقة التى لم تستعمل منذ زمان بعيد .. يستعدون للقاء الانجليز ..

وكان الانجليز قد أذعنوا لثورة مصر .. فأعلنوا أطلاق سراح سعد وصحبه ، والسماح لهم بالسفر إلى أوروبا للمطالبة بالاستقلال .. ولكن لجنة الثورة ظلت فى زفتى قائمة ..

وأشرق الصبح على مدافع الاستراليين منصوبة ، وفوهاتها مسددة إلى بيوت القرية . وقد احتلوا فعلا محلج (رينهارت) ومدرسة (كشك) الواقعين عند أطراف القرية ..

ومرة أخرى .. خرج اسماعيل حمد يسير إلى خطوط الاستراليين . وقال لهم : أن الثورة فى مصر كلها تهدأ ومظاهرات الابتهاج قد حلت فى القاهرة محل اطلاق النار .. وأى طلقة الآن سوف تؤدى إلى أشتباك ، والموقف فى زفتى هادئ تماما .. فاذا ظل الجنود معسكرين خارج زفتى ، وتركوا حركة التبرعات للوفد ماضية . فهذا كفيل بأن لا يقع من الفلاحين شيء .

وكانت لجنة الثورة قد عرفت أن الفرقة الآتية استرالية ، فأعدت منشورات بالانجليزية تقول لهم : «انكم مثلنا» ونحن نثور على الانجليز لا عليكم . والانجليز الذى يستخدمونكم فى استعبادنا يجب أن يكونوا خصومكم أيضا ! .

وأرسلت المنشورات إلى الاستراليين ، وقررت الفرقة أن لا تدخل القرية ، وأن تبقى معسكرة بجوارها .

. واذ سكنت الثورة فى مصر كلها . وباتت القرية تحت رحمة المدافع الانجليزية .. استيقظ الخونة ، الذين خافوا مغبة دخول الانجليز فأرادوا أن يتنصلوا

من الآن ، والذين يريدون الكيد لمن تصدوا لقيادة الحركة .. أخذ هؤلاء وهؤلاء يرسلون خطابات إلى السلطات فى مصر يبلغون عن أسماء الزعماء . وكل من حمل معولا أو ألقى خطابا أو طبع بيانا أو الهب السخط فى صدر فلاح . وكان إسماعيل حمد ـ بخبرته الادارية ـ يعرف ما سوف يحدث .. فكان ينفرد بالخطابات البريدية كل ليلة فى حجرة مغلقة ، يفضها واحدا واحدا ، ويتخلص من كل رسالة تنطوى على وشاية أو كيد ..

وعلم الانجليز أن الفرقة الاسترالية عند حدود زفتى لم تدخلها . وكانت المحاكمات قد بدأت تدور فى شتى انحاء القطر لعقاب الثائرين ، فأرسلوا إليها تعليمات جديدة ..

وطلب الاستراليون تسليم ٢٠ رجلا من أهالى زفتى لجلدهم عقابا على العصيان . وانعقدت اللجنة لتواجه المأزق : أن تسلم ـ وبعد فوز الثورة ـ عشرين رجلا من أبنائها أو أن ترفض وتقاوم ، فتهلك القرية كلها تحت مدافع الانجليز . وبعد بحث طويل أخذت اللجنة باقتراح لاسماعيل حمد . وسلمت القرية عشرين رجلا .. اختارتهم من الذين كانوا يرسلون خطابات الوشاية والخيانة إلى الانجليز ! .

وجلد الانجليز .. عملاءهم ! .

وتلقت الفرقة من القاهرة أوامر أخرى .. تطلب ـ هذه المرة ـ تسليم يوسف الجندى ..

وقال أعضاء اللجنة ليوسف : اذهب إلى مكان ولا تخبرنا به ! .

وتحت جنح الليل تسلل الثائر إلى قرية (دماص) المجاورة .. وقبض الانجليز على بعض الاعضاء .. واحتجزوا عوض الجندى رهينة حتى يقول لهم أين يوسف .. فلم

يطلقوا سراحه الا بعد أن تأكدوا من أنه حقا لا يعرف مكان أخيه .

وانسحب الاستراليون عائدين ..

* * *

أما يوسف الجندى فقد ظهر بعد خمسة عشر يوما من فراره فى القاهرة . يخطب فى (جروبى) الذى كان من منتديات الثورة ويحرض على استمرار النضال .

وأما (قهوة مستوكلى) فقد اندثرت مع الزمن ، وقامت مكانها بعض المحلات التجارية ..

وأما كشك الموسيقى فانه ما يزال هناك .. قائما فى مكانه القديم . وقد حدث مرة واحدة أن فكرت الحكومة فى هدمه لغرض من أغراض التنظيم فاحتج أهالى زفتى بشدة ، وطلبوا الاحتفاظ بهذا الأثر الخالد من آثار ثورتهم ..

ومضت الايام والناس يتناقلون قصة زفتى فيما يتناقلون من قصص الثورة ، ويضيفون إليها .. حتى تلقف القصة ممثل كوميدى ـ على الكسار ـ فنسج حولها مسرحية ناجحة ، وأعطاها الاسم الذى اقترن بالقصة بعد ذلك .. اسم فيه ضحكة ابن البلد واعتزازه : امبراطوية زفتى ! ..

«الأمة» بين سعد وعدلى !

هذان العظيمان ! ..

كل منهما جاء من نبع ، وسار فى واد . كل منهما كان يمثل تيارا معينا .. فاتفاقهما تحالف بين التيارين ، وخلافهما صراع بين القوتين .. يكتب فيه النصر لتيار والهزيمة لآخر .. ومن النصر والهزيمة يولد التطور .

عدلى .. سليل الاسرة التركية العريقة ، وربيب الطبقة الحاكمة فعلا ، و«ابن الذوات» الذى ولد ليجد كل شىء مهيأ لاستقباله : التعليم الرفيع ، الآفاق الاوروبية الحديثة ، الصداقات الكبيرة التى تمهد سبل الوصول السريع .. فان حدث وذهب إلى الريف ، فهو يذهب إلى «أملاكه» لا إلى «بلدته» ..

وسعد الفلاح ابن الفلاحين . الذى نجد بين أخوته من يحملون أسماء «شلبى» و«ستهم» و«فرحانة !» .. وأن كان من طبقة متوسطة ميسورة الحال ..

عدلى الرقيق الانيق المزهف .. عيونه الحالمة وشاربه المخفف ، وطربوشه المائل فى

كبرياء .. عليه سيماء رجل مترف ، فى غنى عن « المطالبة » بأى شىء ، لان كل شىء لديه فعلا .

وسعد الخشن العنيف .. عيونه المقتحمه وشاربه المنفوش وطربوشه الذى يلبسه ملقى إلى الوراء كما تلبس « اللبدة » أو « الطاقية » .. تصرخ هيئته بأنه رجل جاهد واقتحم وطالب بعناد ! .

نعم .. لم يكن عدلى فى حاجة إلى « المطالبة » بشىء . فهو ابن الطبقة الحاكمة ، ولد ليحكم ! يمارس الحكم كالهاوى وليس كالمحترف ، تستهويه من اللعبة رغبة « الاتقان » لا « الكسب » .

أما سعد فعلى العكس تماما . كان عليه أن يقطع طريقا عنيفا طويلا حتى يصبح ندا لعدلى ، فهو يقضى طفولته لاعبا مع أولاد الفلاحين . ويذهب فى صباه إلى « الكتاب » حيث يجلس على الحصير ويحفظ القرآن ويمد يده ليضربه « العريف » بالعصا . واذا تفوق أرسله أبوه إلى الازهر فى القاهرة .. يلبس العمامة والكاكولة ، ويسكن فى « ربع » عتيق مع الآخرين .. يتسكع فى الحوارى ويعيش أياما على الطعمية والفول النابت وهو لا يجلس إلى اساتذة مطربشين بل يتربع عند عامود فى الأزهر يستمع . ولكنه يتشيطن ، ويبدأ فى « المطالبة » فيؤلف جمعية لاصلاح الازهر .. ويتسلل فى الليل إلى صحن الجامع ليعلق على أعمدته المنشورات ، ويخرج من المسجد ، ليضع قدميه فى « مركوبه » ويسير إلى قهوة متاتيا عند حديقة الازبكية يستمع إلى جمال الدين الأفغانى وهو يقرقر بشيشته ، ويوزع « السعوط بيمناه والثورة بيسراه » .. تلميذ يتعلم الثورة من الثائرين .

ثم عليه بعد ذلك أن يصعد درجة أخرى ، فيلتحق بالحكومة .. كاتبا فى « الوقائع المصرية » التى يرأس تحريرها أحد تلاميذ الافغانى : الشيخ محمد عبده ،

بمرتب ثمانية جنيهات ، فبماذا «يطالب» هذه المرة ؟ .. بالاداة الوحيدة التى يستطيع بها مثله أن يشارك فى حكم مصر : البرلمان .. ويكتب فى الوقائع «المستبد عرفا من يعفل ما يشاء غير مسئول ، ويحكم بما يرسم به هواه وافق المشرع أو خالفه ، ناسب السنة أو نابذها . ومن أجل هذا ترى الناس كلما سمعوا هذا اللفظ أو ما يضارعه صرفوه إلى هذا المعنى ونفروا من ذكره ، لعظم مصابهم له وكثرة ما جلب على الأمم والشعوب من الاضرار» .

تلميذ مخلص للافغانى ، يعرف كيف يردد كلماته ! ..

وتشب الثورة العرابية للقضاء على هذا الاستبداد . ويساهم الشاب الصغير الذى لم يبلغ الرابعة والعشرين فى الثورة . ويتحمس للزعماء الفلاحين ـ مثله ـ الذين يزيدون الاطاحة بالاستبداد التركى . ولكن الثورة تتخبط فى أخطاء بعض قادتها ، والاستبداد المحلى يستعين بالانجليز فيدخلون مصر ، وتفشل الثورة وينفى عرابى ومحمد عبده والنديم ، وقبلهم نفى الأفغانى ، وكل من عرفهم فى قهوة متاتيا .. وتعود سطوة الطبقة التى كان يجب أن تطيح بها الثورة . ويوضع سعد فى السجن أياما ثم يخرج وقد طرد من وظيفته .. فهو الآن فى الطريق مجرد أزهرى شاب .. بلا زملاء ولا اساتذة ولا عمل . ودرجات السلم التى قطعها صاعدا قد سقط عنها . فماذا يصنع ؟ .

يبدأ من جديد .

ويقتحم سعد مهنة جديدة ، لا يحتاج النجاح فيها الا إلى ذلاقة اللسان وحضور البديهة والذكاء . ولا يشترط لمزاولتها الحصول على شهادة أو مؤهل .. وهى لذلك ـ فى ذاك الوقت ـ مهنة حقيرة مهينة ، ينظر الناس إليها بازدراء ، ولا يعمل

فيها «أولاد الناس» تلك هى المحاماة . وكان المحامى فى ذلك الوقت يسمى «السفيه ! » ..

ويعمل فى المحاماة تسع سنوات . يرتفع فيها بالمحاماة من السفاهة إلى الكرامة . وتسترد اعتبارها ، هذه المهنة التى كان عليها أن تقود وتتزعم وتثور . وهو فى أول عهده بالمحاماة تنظر إليه الحكومة نظرة ارتياب فتلقى القبض عليه بتهمة تأليف «جمعية الانتقام» ثم لا تجد دليلا فتفرج عنه . وفى آخر عهده بها تنظر إليه الحكومة نظرة اطمئنان فتعينه قاضيا . ويكون أول محام مصرى يجلس فى كرسى القضاء ..

ويتدرج فى مناصب القضاء أربعة عشر عاما متوالية حتى يصبح مستشارا . وفى هذه الأعوام يتعرف لأول مرة على الارستقراطية .. فبعد المقاعد الخشنة فى قهوة متاتيا يأخذ مجلسه فى ندوة «الاميرة نازلى» بين الباشوات .. ويصاهر هذه الارستقراطية فيتزوج «صفية» ابنة مصطفى باشا فهمى رئيس الوزارة . ويبحث عن المؤهل الرسمى فيدرس الحقوق وهو مستشار وزوج ، وينال الليسانس من باريس . وهذه الأعوام هى فترة ضعف فى تاريخ سعد ، ولكنه لا يفقد شخصيته . فهو يظل المصرى الفلاح ، لا ينخرط فى سلك الارستقراطية ولكنه «يصاهرها» فحسب . يصاهرها بالزواج ، وبالوظيفة ، ثم .. بالوزارة .

ففى سنة ١٩٠٦ وقع حادث رهيب هز مصر هزا عنيفا : نصب الانجليز فى قرية دنشواى أربع مشانق ، وكل ربع ساعة يخطر إلى المشنقة فلاح ، ويلتف الحبل حول عنقه ثم يسقط ، وأهل القرية واقفون فى الحقول وعلى سطح بيوت الطين يشهدون . وبين كل عمليتى شنق يخطر فلاح أو فلاحون وقد جردوا من ثيابهم ، وعلى ظهورهم تتوالى السياط ، وينزف الدم ، وحول المكان وقف جنود الانجليز ـ كما قال برنارد شو ـ يشرفون على أخراج هذه المسرحية وحفظ النظام بين

المتفرجين ! وغدت قرية دنشواى لوحة قاسية تعبر عن حالة مصر كلها : أمة مسلوبة مسوقة إلى حتفها ، تلهب ظهرها العارى سياط الاحتلال ، وتنهش لحمها المتمزق غربان المصالح الاقتصادية الاجنبية . وطارت أنباء دنشواى فى القطر الهاجع تهز النائم وتوقظ الغافل ، وتشير باصبع من الدم إلى حاضر أسود ومستقبل مجهول ، وتقدم الدليل القاطع إلى مصطفى كامل الذى كان يندد فى العالم كله بمساوئ الحكم الانجليزى بلا دليل ! ..

وكان لابد أن يصنع الانجليز شيئا لقمع هذا السخط الذى كشر عن أنيابه فجأة . كان لابد من جرعة صغيرة لارضاء المصريين ، وكانت هذه الجرعة هى أشراك بعض المصريين ذوى السمعه الحسنة لدى الرأى العام فى مناصب الحكم ، وأخراج اللورد كرومر المسئول عن هذه المجزرة . وعين سعد زغلول وزيرا للمعارف ، اذ توافر فيه الشرطان : الأول أنه حسن السمعة بين المصريين ، حتى أن مصطفى كامل نفسه أشاد بتعيينه وزيرا ، والثانى أنه ليس خصما عنيفا للانجليز يقف منهم موقف العداء الصريح . ويبقى فى الوزارة سنوات ثم تتراكم الخلافات بينه وبين الانجليز . وبينه وبين الخديوى ، فى وزارة المعارف ثم فى وزارة (الحقانية) فيقدم استقالته .. وتقبل فورا ..

وبعد هذا السرد السريع ، نقف هنا قليلا لنتأمل قضية هامة :

فقد تعرضت حياة سعد فى فترة توليه القضاء والوزارة لجدل عنيف : ناس يقولون أن سعداً استطاع فى وزارة المعارف أن يوقف سياسة الانجليز التعليمية عند حدها ، وأن يقص أطراف (دنلوب) الجبارة وأن يكون أول وزير مصرى له نفوذ حقيقى فى وزارته . وأن يجعل اللغة العربية هى اللغة الاساسية فى المدارس بدلا من اللغة الانجليزية ..

وناس يقولون : بل أنه صاهر مصطفى فهمى الذى رأس وزارة واحدة مدة ثلاث عشرة سنة متوالية ، لانه كان أطوع رؤساء الوزارات جميعا للانجليز .. وأنه ـ أى سعد ـ قد أشترك فى كل الاوزار السياسية التى اقترفتها الوزارات المصرية التى أشترك فيها .. وأنه هو الذى دافع عن فكرة مد امتياز شركة قناة السويس أمام جمعية شورى القوانين ، وهو الذى اشترك فى أعداد التشريعات المقيدة للصحافة ، والتى سيق بها فريد إلى السجن .

فماذا نسمى موقف سعد فى هذه السنوات ؟ ..

هل كان وطنيا ؟ .. أم كان خائنا ؟ ..

الرأى عندى أن الحيرة هى التى كانت طابع سعد زغلول فى هذه الفترة .. وهى نفس الحيرة التى كانت طابع أكثر المصريين فى ذلك الوقت ..

فبعد صدمه الاحتلال الانجليزى ، سادت مصر موجة من اليأس والفاجعة والركود ، دامت حتى أيقظها صوت مصطفى كامل .. وبعد أن استجمعت مصر حواسها على صوت الزعيم الشاب بدأت تفكر .. وتبحث عن طريق الخلاص .. وكان طبيعيا أن تظهر أكثر من فلسفة ، وأن يظهر بالتالى أكثر من حزب ..

وفى خلال سنة واحدة .. أعلن عن تشكيل ثلاثة أحزاب : حزب الأمة والحزب الوطنى .. وحزب الاصلاح الدستورى .. فاذا استبعدنا هذا الحزب الأخير الذى أسسه الشيخ على يوسف بوصفه كان حزبا شخصيا مرتبطا بوجود زعيم .. فانه يبقى لدينا حزبان أو فلسفتان رئيسيتان :

كان الحزب الوطنى الذى أسسه مصطفى كامل صاحب الفضل فى نفض غبار اليأس عن المصريين ، وبعث الحركة الوطنية لمقاومة الانجليز ، ولا شك أن البدء

بمقاومة الاستعمار هو الخط السياسى السليم ، لأنه بغير طرد الاستعمار لا يمكن أن يستقيم الأمل فى مستقبل مأمون ، على أن مصطفى كامل والشباب الذين التفوا حوله كانوا من الجيل الذى لم يعاصر مقدمات الثورة العرابية ولم يدرك كنهها . ولقد خرج هذا الجيل إلى وجود الوعى ليجد أن انجلترا هى الخصم الرئيسى ، وهى التى تستغل مصر وتستبد بها ، فظنوا أنها الخصم الوحيد : لم يشهدوا استبداد العرش والأتراك بالمصريين ليكرهوه كما كرهوا استبداد الانجليز . ولم يشهدوا قصة كفاح المصريين المرير ضد الخديوى ، حتى استعان الخديوى بالانجليز ، كى يدركوا كيف أن الاستبداد المحلى صديق صدوق للاستبداد الأجنبى . ولم يدركوا أخيرا أن أوروبا كلها كانت تتجه إلى استعمال البلاد الأقل قوة لكى تسيطر على مواردها وليست انجلترا وحيدة فى هذا الميدان . بل على العكس .. لقد وجد مصطفى كامل بمجرد تخرجه من الجامعة يدا تمتد إليه من الخديوى عباس تساعده وتحرضه ، ووجد رتبة الباشوية تأتيه من الباب العالى فى تركيا . ووجد نوابا فرنسيين يحرضونه مع الخديوى والباب العالى على المضى فى مقاومة الانجليز .. فلم ينتبه وهو فى بدء خبرته وتجاربه إلى ما وراء هذا العون والتأييد من دوافع ونوايا لا تختلف كثيرا عن نوايا الانجليز .. وكانت النتيجة أن الحزب الوطنى ارتكب الاخطاء الرئيسية الآتية :

١ ـ فقد دعا الحزب فى برنامجه إلى استقلال مصر طبقا لمعاهدة لندن سنة ١٨٠٤ . أى أن تكون مصر مستقلة استقلالا ذاتيا تحت ظل الخلافة التركية .

وكانت هذه الدعوة خاطئة من نواح كثيرة : فالمصريون ـ والفلاحون بنوع خاص ـ الذين ذاقوا مرارة العسف التركى وأمتصاص الدخلاء لاقواتهم لا يمكن أن يتحمسوا لدعوة تتجه إلى تركيا مما أدى إلى اقتصار نفوذ مصطفى كامل على الطلبة والشباب فى المدن دون الريف .. ومن وجهة نظر العالم الخارجى أيضا ، لم تكن الدعوة إلى خروج مصر من نفوذ انجلترا إلى نفوذ تركيا تكسب البريق والنجاح الذى

تكسبه دعوة إلى تحرير مصر من كل نفوذ ، فى وقت تثور فيه بعض الشعوب الأوروبية ـ كاليونان ـ على الاستعمار التركى ! .. فضلا عن أن الاعتماد الادبى على الخلافة التركية كان كالاستناد إلى جداد منهار ، فلم تكن لهذه الخلافة أى كلمة مسموعة فى العالم يمكن أن تنفع مصر. وكانت الامبراطوية التركية قد غدت أضحوكة الامبراطوريات .. بل أن تركيا نفسها كانت تلتهب فيها الثورات ضد الخليفة تحاول الاطاحة بالاستبداد وأقامة حكم الدستور.

ثم .. ألم يكن هذا الخليفة التركى هو نفسه الذى أصدر بيانه الشهير بأن عرابى كافر مارق ؟ ! .

٢ ـ وتحالف الحزب الوطنى مع الخديوى عباس طويلا . مع أن عباس هذا هو الأبن المباشر لتوفيق الذى دعا الانجليز إلى احتلال مصر.. ولم يفهم أن اصطدام الخديوى الوقتى مع الانجليز كان لتوسيع سلطة العرش لا لتحرير المصريين . لينفرد الخديوى بالاستبداد بالمصريين دون الانجليز. وقد دفع الحزب الوطنى ثمن هذه الغلطة سريعا . فقد أدرك عباس بسرعة أن مصلحة عرشه فى الارتباط بالانجليز لا بالشعب ، فخان مصطفى كامل وطعنه فى ظهره (بسياسة الوفاق) الشهيرة ... وهذه الغلطة تذكرنا بغلطة الوفد حين هادن القصر فى سنتى ١٩٥٠ و ١٩٥١ ، ظنا منه أن القصر يمكن أن يعينه فى محاربة الانجليز.. حتى دفع الوفد الثمن بنفس الطريقة حين طعنه فاروق من الخلف بحريق القاهرة وما أعقبه من مؤامرات ..

٣ ـ وأخطا الحزب الوطنى غلطة ثالثة كبيرة ، اذ أعتمد على فرنسا ونشر بين جماهيره أملا فى عونها ، وكان مصطفى كامل فى ذلك منخدعا بما يراه من مظاهر الخلاف بين فرنسا وانجلترا فى شأن مصر. ولم يدرك أن فرنسا وانجلترا دولتان استعماريتان . وأن الخلاف بينهما تنافس على الظفر بالمصالح المصرية . ومرة ثالثة ،

انهارت آمال المصريين التى أقامها لهم الحزب الوطنى ، اذ عقدت فرنسا الاتفاق الودى الشهير مع انجلترا سنة ١٩٠٤ .. وهذه الغلطة أيضا تذكرنا بغلطة معاصرة : غلطة الذين كانوا يعلقون آمالهم فى أخراج الانجليز على مساعدة أمريكا .. فهم ـ بدورهم ـ لم يدركوا أن أمريكا لا تعادى الاستعمار كنظام ولكنها (تنافس) الاستعمار الانجليزى .. وأنها ما زالت تخذل الآملين فيها كلما تعرضت سياستها لامتحان حقيق فى قضايا العرب ضد الصهيونية والاستعمار ! ..

وإلى جانب هذه الأخطاء السياسية التى كانت تفض الكثيرين عن الحزب الوطنى ، كان ملحوظا أن الحزب الوطنى يقف موقفا رجعيا من التطور الاجتماعى : فحين تزوج الشيخ على يوسف أبنة السادات كانت صحف الحزب الوطنى هى التى تزعمت الحملة عليه .. وحين أصدر (قاسم أمين) كتابا عن تحرير المرأة ، تزعمت صحف الحزب الوطنى أيضا الحملة على سفور المرأة وتحريرها ، واتهمت قاسم أمين بافظع الاتهامات ! .. بل لقد حدث حين كان الشيخ محمد عبده مفتيا للديار المصرية أن تلقى سؤالا من أحد المسلمين فى جنوب أفريقيا يسأل : هل يجوز للمسلم أن يلبس قبعة ؟ . فأفتى محمد عبده بأن (لبس البرنيطة اذا لم يقصد فاعله الخروج من الإسلام لا يعد مكفرا) .. فهاجمته اللواء واتهمته بالكفر والالحاد لأنه أباح للمسلمين لبس القبعات ! ..

على أنه اذا كان الحزب الوطنى قد نقصته الخبرة السياسية ، فقد كانت له النيه الصادقة والتضحية النبيلة ، وكان له قبل كل شىء فضل اذكاء الروح الوطنية فى النفوس ، واعادة الشعب إلى الثقة بنفسه ..

أما الحزب الثانى فهو (حزب الأمة) .. كان رئيسه محمود سليمان باشا ، وفيلسوفه ورئيس تحرير لسان حاله (الجريدة) أحمد لطفى السيد ، وقد تكون هذا

الحزب ـ كما قال لطفى السيد فى (الجريدة) ـ من «سراة البلاد وأعيانها وأذكيائها» . أو بالتعبير الاقتصادى ـ من كبار التجار والملاك الزراعيين فيها .. وأنك لتذكر ـ أيها القارئ ـ أن هذه الفئة ذاتها هى التى قادت حركة المطالبة بالدستور فى أواخر عصر اسماعيل حتى نشبت الثورة العرابية .. وتذكر أن غاية هذه الحركة كانت وضع أداة الحكم فى أيدى المصريين .. فلا تفرض الضرائب الا بموافقتهم ولا تعقد التسويات المالية مع الدول الا برأيهم . فهم أصحاب الثروة الزراعية فى البلد ، الثروة الوحيدة فى ذلك الوقت .. وهم بناء على ذلك دافعو الضرائب الذين يتحملون مغبة سفاهة الحكومة المالية وعسف الاتراك .. فهم الآن يعودون إلى التجمع فى حزب الأمة ويدعون دعوتهم القديمة : مصر للمصريين .. ليست للانجليز وليست للاتراك .. ويطالبون بنفس المطالب القديمة : وضع الدستور ونشر التعليم وتمصير الاداة الحكومية .. ثم الاستقلال التام .

وقد قلت إن أحمد لطفى السيد كان فيلسوف هذا الحزب وكان لكتاباته فى (الجريدة) آثار عميقة جدا ، حددت إلى حد كبير الكثير من اتجاهات السياسة المصرية خلال نصف قرن تقريبا وعلى ذلك فخير ما أوضح به فلسفة هذا الحزب هو أن أعود بك إلى تلك المقالات التى كان أحمد لطفى السيد يكتبها سنة ١٩٠٧ .

كان أحمد لطفى السيد يرى أن فى مصر سلطتين : السلطة الشرعية ، أى الخديوى عباس ، والسلطة الفعلية أى الانجليز .. وأن نظام الحكم استبدادى مطلق «الأمير فيه مطلق فيما له من السلطة ، والمعتمد البريطانى وأعوانه أكثر اطلاقا فيما سلطتهم عليه القوة من الادارات المصرية» . والأمة أمام هاتين السلطتين المطلقتين تجرى بها الاقدار يوما إلى اليأس ويوما إلى الرجاء .. أذن فلا بد أن تقوم سلطة ثالثة تقضى على استبداد هاتين السلطتين هى : الأمة .. وما هى الأمة فى رأيه ؟ .. هل

هى عامة الشعب ؟ .. كلا « الأمة لا تتكون من الافراد بل تتكون من العائلات .. والاعيان هم رؤساء الأمة الطبيعيون ، لأنهم رؤساء العائلات » .. فالأمة بهذا المعنى ، بمعنى أنها الملاك الزراعيون « يجب أن تتخذ لها مركزا ثابتا بين السلطتين » وما هو الطريق الذى يتبع فى تحقيق هذه الغاية ؟ .. « الطرق السلمية المشروعة ، التى لا تمس مصلحة الأجانب ، ولا تجعل للانجليز ذريعة جديدة لتثبيت مركزهم فى مصر » .. أما « التطرف من جانب الجمهور » فالحزب لا يوافق عليه ، لأنه يؤدى إلى « العناد والقسوة من جانب الاحتلال القوى ، عناد لا تحتمل هذه البلاد نتائجه فى هذه الحالة الراهنة ! » .

فحزب الأمة أذن هو حزب الاعيان . وهو اذا كان صاحب الفضل فى شن الهجمات على سلطة الخديوى ، والمطالبة بالدستور ، الا أنه لم يكن يتحرق كراهية للانجليز . ولم يكن يطلب الجلاء ، ولكن التدرج . والدستور كان يطلبه ليكون وسيلة يشترك بها الاعيان فى حكم البلاد ، جنبا إلى جنب مع الخديوى والانجليز ..

« ... لسنا نطلب الاعتراف باستقلال حكومتنا المصرية ، لأن استقلالها ثابت معترف به بالمعاهدات الدولية . ولكن الذى نطالب به هو استرداد حقوق الأمة الطبيعية ، بأن تكون لها فى مصر كل السلطة التشريعية تدريجيا . أما الاحتلال الانجليزى فانه قوة أتت بها ظروف سياسية مرتبة ، وتذهب بها ظروف سياسة مرتبة كذلك ! » . كذلك كان حزب الأمة يوافق على سياسة الانجليز الاقتصادية فى مصر على طول الخط « .. نظلم الانجليز اذا لم نعترف بالتحسين المادى والادارى الذى وصل إلى مصر فى عهد الاحتلال ! .. » .

وكان لموافقة حزب الأمة على سياسة الانجليز الاقتصادية سبب هام : فالحزب كما رأينا يتكون من أصحاب الاملاك ، أو من « أصحاب المصالح الحقيقية » كما

كان يقال . وكانت سياسة الانجليز فى مصر تتجه إلى تحطيم كل الصناعات المصرية التى كانت بالبراعم تبشر بالنمو ، وإفساح المجال لرؤوس الأموال الأجنبية تستأثر بالصناعة والتجارة .. أو كما قال كرومر (إن من مصلحة الطرفين ـ مصر وانجلترا ـ أن تقوم صناعة مضمونة .. مصر تزرع القطن وانجلترا تصنعه !) .. ومن أجل ذلك قام الانجليز باصلاحات هامة لتحسين الرى والصرف وأخصاب الأراضى الزراعية . وأصبحوا هم المشترون الوحيدون تقريبا للقطن الذى يزرعه كبار الملاك ، أو (أصحاب المصالح الحقيقية) ..

وقد أدى ذلك إلى توثيق كثير من الصلات بين انجلترا و (أصحاب المصالح الحقيقية) .. فكانوا يرسلون أبناءهم إلى انجلترا يتلقون العلم ثم يعودون ليتولوا المناصب البارزة فى الإدارة .. فاذا طالب (أصحاب المصالح الحقيقية) بعد ذلك بشيء .. فلا أكثر من أن يزيد حظهم فى حكم البلاد .

تلك هى التيارات السياسية التى كانت موجودة فى ذلك الوقت : فأى التيارات تختار ، أيها القارئ ؟ ..

أن الحيرة التى تأخذك الآن كانت تأخذ سعد قطعا ! .. أنه يرى جوانب الضعف والقوة فى كل تيار فيحجم عن الانضواء تحت واحد منها نهائيا .. فالحيرة هى طابع سعد فى هذه السنين ، وآيات هذه الحيرة كثيرة :

أولها أنه لم ينضم إلى حزب منها انضماما واضحا . وهذا السلوك غريب من سعد بالذات ، ولا تفسير له الا هذه الحيرة التى كانت تضطرب فى نفسه . فهو رجل بارز ، مشتغل بالمسائل العامة ، وله مواهب تدفعه دفعا إلى السياسة ، وهو عنيف فى حبه وكراهته .. ومع ذلك فهو لا يحب حزبا بعنف ، ولا يكره حزبا بعنف .. أنما هو يأتى الحسنات التى يرضى عنها الجميع ، ويرتكب الأخطاء التى يغضب لها

الجميع .. يغسل قدميه فى كل نهر ، ولكنه لا يمضى فى تيار واحد منها .

هو صديق حزب الأمة .. الساهر فى ندواته .. المشترك فى وزاراته ، بل أننا نجد (أحمد شفيق باشا) يقول فى مذكراته «كان الخديوى عباس يخشى أن يكون لسعد زغلول وأخيه أحمد فتحى زغلول باشا يد فى تأليف هذا الحزب ، لذلك سألنى مرتين وهو فى أوروبا عن ذلك فأجبته بأنه لم يظهر لى أن لهما علاقة به» . ولكن الخديوى عباس ظل على يقينه من هذا الاشتراك ، فتراه يقول فى مذكراته التى نشرت فى (المصرى) سنة ١٩٥١ «كان سعد باشا زغلول هو الرأس المفكر وراء هذا الحزب وتلك الجريدة فى مستهل عهدها . وكان قد تلقى دروسه الأولى فى السياسة بأشراف الأميرة نازلى سليلة محمد على ، والموالية مع ذلك لانجلترا .. وأنه لتطور أساسى ذلك الذى جعل من هذا الفلاح ابن الفلاح بطل الاستقلال الوطنى بذلك الاخلاص المطلق الذى أتسم به من قبل نشاط مصطفى كامل ! .»

وهو فى الوقت نفسه صديق لمصطفى كامل . وحين عين وزيرا لأول مرة كتب مصطفى كامل فى اللواء يقول :

«أن ما يعرفه الناس من أخلاق وصفات سعد بك زغول يحملهم على الارتياح لهذا التعيين الذى صادف مصريا مشهورا بالكفاية والدراية والعلم الغزير وحب الانصاف والعدل .. وأننا عرفنا سعد بك زغلول فى ماضية وحاضره أشد الناس تمسكا باستقلاله وحقوقه وأكثرهم انتقادا على الذين تركوا سلطة مناصبهم لغيرهم ، وسمعناه يقرع بلهجة حادة الكسالة والمقصرين كبارا كانوا أو صغارا .. فاذا بقى سعد بك فى وظيفته كما كان وكما هو ـ وهو ما نعتقد ـ أملنا ـ خيرا كبيرا للمعارف ورجونا سريان هذه الروح إلى بقية النظار وعودة الحياة المصرية إلى الوزارة» ..

فهذا التعليق يدل على سابق ود ، وسابق أتفاق فى آراء كثيرة . ومع أن الحزب

الوطنى عاد فهاجم سعد بشدة ـ وبحق ـ حين أخطأ سعد فى الوزارة .. الا أنه لم يصبح عدوا له .. حتى أنه حين رشح نفسه بعد ذلك فى الانتخابات لعضوية الجمعية التشريعية ـ كما سيأتى ـ أيد الحزب الوطنى سعد ، وأقام السرادقات له .
وكتب فريد فى مذكراته ـ وهو فى المنفى ـ يقول «أن انتخاب سعد باشا سيغضب الخديوى ، ومما يزيده غضبا أن الحزب الوطنى عضده وساعده بقوته» .

حتى المؤيد جريدة الشيخ على يوسف ، ولسان حزب الإصلاح الدستورى . كان مدينا بوجوده لسعد زغلول .. فحين تفلس الجريدة ، يسرع سعد زغلول إلى أنقاذها بالمال ، وحين تقرر الحكومة أغلاقها ، يذهب إلى صهره رئيس الوزارة . ويدافع عنها حتى يلغى قرار الأغلاق .. ويسجل على يوسف ذلك كله فى مقالات له ..

هكذا كان سعد حائرا .. يساعد كل مجهود وطنى مهما يكن لونه ، ويصدر بيان الدعوة إلى إنشاء الجامعة المصرية من بيته .. ويرتكب فى الوزارة أخطاء لا يمكن تبريرها . وسيكون هو نفسه ـ بعد قليل ـ أول المعترفين بها ! ..

ولم تكن هذه هى حيرة سعد وحده ، بل حيرة الكثيرين ... ربما الاغلبية ؟ ! ..

على أن حيرة سعد تنتهى بخروجه من الوزارة .. ليعقبها تصميم عظيم .

وكأن هذا العملاق الذى خبر كل سر ، وذاق كل طعم ، بدأ يعرف كيف يصنع الخبز الذى يريده المصريون .

فما أن يعلن عن تكوين الجمعية التشريعية .. وأن بعض أعضائها ستعينه الحكومة وبعضهم سينتخبه الشعب ، حتى يقرر خوض معركة الانتخاب ، ويرشح نفسه فى القاهرة ، وفى دائرتين منها ، والقاهرة كلها أربع دوائر ، أى فى نصف

المدينة تماما ، ويدخل المعركة مستقلا عن الاحزاب .. واذا كانت الاحزاب ستؤيده كلها ، فانه لن يكون مدينا بنجاحه لحزب بالذات .

ويفوز سعد فوزا لم يكن يتوقعه أحد ، ويكتسح المعركة !

الآن يقطع صلته بكل (تعيين) ويختار (انتخاب) الناس حتى آخر حياته ..

فإذا دخل الجمعية التشريعية ، ولها وكيلان واحد معين وواحد منتخب ، عينت الحكومة عدلى يكن وكيلا . وانتخب الأعضاء سعداً لمنصب الوكيل الثانى ..

* * *

ها هو سعد ، بعد هذه الرحلة الطويلة المضنية يصبح الوكيل المنتخب . وعدلى الوكيل المعين .. وهما الآن صديقان يتبادلان التقدير والإعجاب .. ولكن القدر الذى جاء بكل منهما من نبع ، أراد أن يجعل كل واحد رمزا لقوة جبارة عاتية .. هذا الذى بعثته الطبقة الحاكمة الذى هو أبنها . وذلك الذى بعثته أرادة الشعب . الشعب الذى لا يعرف أحد مضمونه الجديد بعد .. ولابد أن يقع الصدام ..

وتجئ أول معركة ..

توعز الحكومة إلى أحد الأعضاء أن يسألها : إذا حدث وتغيب رئيس الجمعية التشريعية : فمن الذى يرأس الجلسة .. الوكيل المعين أم الوكيل المنتخب ؟ .. وترد الحكومة بالأجابة المحضرة من قبل : الوكيل المعين طبعًا ..

ويهب سعد .. إنه هنا يمثل أرادة الشعب .. وعقيدته .. أن أرادة الشعب يجب أن تكون لها السيادة على أرادة الحكومة ... وقبل أن يصدر قانون الجمعية التشريعية كان يكتب فى (الأهرام) مقالات بتوقيع (س) يطالب فيها بزيادة حقوق الناخبين والمجلس . ويومها رد كتشنر على مقالاته بتصريح قال فيه : أن هذا

المشروع يمكن تعديله بمضى الزمن تبعًا للتقاليد .. وها هى فرصة تسنح لوضع تقاليد فى مصلحة الشعب ...

هب سعد يهاجم الحكومة على هذا التصريح ، ورد عليه رئيس الحكومة متحديًا بقوله : « إذا كان المجلس لا يقر هذا التصريح فالحكومة سوف تنفذه على أى حال ! » . وأحتج سعد على هذه الزراية بالأعضاء ، ووجه إلى رئيس الحكومة كلامًا عنيفًا أرتعدت له فرائض الأعضاء المذعورين : « يقول عطوفة الرئيس أن الحكومة ستنفذ هذا التصريح ... فبأى كيفية يا ترى ؟ . أبالقوة ؟ . لقد أنكرها الرئيس وقال لا نريد أن نلتجئ إلى القوة .. إذن إلى أى شىء تريد أن تلتجئ ؟ .. نحن لا نسلم لك بهذا الحق أبدًا » .

وتستعر المعركة بين الحكومة ، التى يوجهها كتشنر ، وبين سعد . ويضع سعد أول تقاليد المعارضة البرلمانية فى مصر : تصبح له كتلة من الأعضاء يتبعون أشاراته ، ويلجأ إلى كل المناورات التى تعرفها برلمانات أوروبا لمقاومة الحكومة .. فينسحب بأنصاره ليصبح العدد غير قانونى وترفع الجلسة .. وتتوالى الجلسات .. وسعد يقف على المنبر عالى الصوت مرفوع الهامة . ولأول مرة تزدحم القاعة بالمتفرجين وتتركز الأنظار فى مصر كلها على المنبر .. ويشعر الناس بأن هذا المجلس النيابى الشاحب يمكن أن يكون شيئًا .. ويعصف منطقه بكل حصون الحكومة ، حتى أن الأعضاء جميعًا يقفون له مصفقين .. ولكنهم ساعة التصويت ـ طبعًا ـ مع الحكومة ..

ويغتاظ كتشنر من هذه الحملة التى لا يستطيع إيقافها فيقول لعدلى يكن : إنك لا تعاون الحكومة على صد حملات سعد .. فيجيب عدلى ـ اللاعب النظيف ـ : إننى لم أتعود أن أكون تابعًا للوزارة ! .

كان عدلى يعرف أنه مجرد رمز للطبقة الحاكمة ، وأن المعركة لا تدور حول شخصه بل حول وضعه .. وقد قال سعد فى أحدى خطبه أنه يقبل عدلى يكن رئيسًا ولكنه لا يسلم بالمبدأ .. وفى أثناء خطبة أخرى لسعد . مال عدلى يكن على جاره وقال له بالفرنسية :

Saad Pacha parle très bien, mais malheureusement il s'adresse à des sinions de chemin de fer.

أى : أن سعد باشا يقول كلامًا بديعًا ، ولكنه مع الأسف يخاطب جماعات كأعمدة السكك الحديدية ! ..

وتصوت (أعمدة السكك الحديدية) فى جانب الحكومة ، ويهزم سعد .

ولكن سعد ينتصر إنتصارًا ساحقًا .. خارج المجلس .. فقلوب الناس تخفق له الآن بشدة : فى داخل القاعة أشتبك محام شاب (عوض الجندى) مع عضو كان يقاطع سعد كلما تكلم .. وفى اليوم التالى للتصويت أمتلأت جدران المجلس الخارجية بالمنشورات الثورية ، علقها فى الليل مجهولون . وفى شهور خمسة ــ هى كل عمر الجمعية التشريعية ــ تجمعت حول سعد كل أسباب المعارضة وقوتها .. كانت بمثابة فترة ترشيح وتمهيد للزعامة المقبلة .. وأنه الآن ليمحو كل آثار التردد والأخطاء القديمة .. حتى ليقف مرة على منبر الجمعية يدلى للناس جميعًا بإعتراف نبيل « إننى كنت قاضيًا ، وكنت وزيرًا وأنا الأن عضو بينكم وقد كان شعورى يختلف بإختلاف مركزى . عملت وأنا وزير أمرًا لو عرض على الآن لكنت أول المنتقدين عليه ، المعارضين له بكل قواى . عملته لظروف بررتها فى ذلك الوقت أمام نفسى ، كما يبرر أخوانى أعمالهم الآن .. وكنت حسن النية كما أنهم حسنو النية .. ولكن لو عرض على مثل هذا الأمر الآن لرأيته خطأ جدًا ، وتألمت غاية الألم .. فلا تهولنكم أشخاص الوزراء ، فإن مراكزهم تتغلب عليهم ! ! » ..

إنه يعتذر عن كل ما أخطأ فيه . وينال بإعترافه الغفران . وهو ينظر أيضًا إلى المستقبل ، قال صديق له ذات يوم إنه يتعب نفسه فى الجمعية التشريعية بلا جدوى ، فالأعضاء فى جانب الحكومة . فرد عليه : أننى لا أخاطب الجمعية التشريعية ، بل الأمة ، ولا أحدث الحاضر ، بل المستقبل ! ».

* * *

خمسة شهور فقط عاشتها هذه الجمعية التشريعية ، هذا المنبر المتواضع الذى جعل منه سعد شيئًا مذكورًا .. ثم تهجم الحرب العالمية الأولى فتلف فى ظلامها كل المصريين ، وكل الأتجاهات .. وتعج القاهرة بجنود الأمبراطورية . وتصبح مصر قاعدة هجومية تخرج منها حملات الأنجليز إلى الشرق الأدنى . ويساق العمال المصريون مربوطين فى الحبال إلى الجبهة حيث يحفرون الخنادق ويتساقطون صرعى . ويخطف الأنجليز كل شىء حتى دجاج الفلاحين . ويدنسون كل مكان حتى خدور النساء !

وتعلن أنجلترا الحماية فتسقط السيادة التركية عن مصر كما يسقط ثوب ممزق قديم لم يكن يستر شيئًا . وتصبح مصر تابعة لأنجلترا . وتعلن الأحكام العرفية لأول مرة فى تاريخ مصر لتحمى جريمة أعلان الحماية ، وتتحلل الأحزاب أو تختفى . وتصريحات رشدى رئيس الوزارة راضية بالحماية ، بل مرحبة . فلا يسجل سخط مصر على هذا الوضع إلا طلبة مدرسة الحقوق . إذ قيل لهم أن السلطان الجديد حسين كامل سيزور الكلية فقرروا الأضراب ، وذهب السلطان ليجد المدرجات خالية وفصلت المدرسة زعماء الأضراب ، ومن بينهم نجد أسماء صبرى أبو علم . يوسف الجندى . فكرى أباظة . سليمان حافظ . عمر عمر . حسن يس . وتحرم من أمتحان هذا العام

الزعماء الأقل خطورة ومنهم : على بدوى . مرسى فرحات . سليمان نجيب .

* *

وبعد أربع سنوات من المحنة يتبدد الظلام . ويتلفت المصريون جميعًا باحثين عن نصيبهم من نور السلام .. من المبادئ الرنانة التى تنادى بها أمريكا بلسان رئيسها ويلسون ، والتى لم ينكشف زيفها بعد .

ويتفق الجميع ـ بلا إستثناء ـ على إنه لابد من تغيير ، ولابد من عمل شىء .. كل مدفوع بدافعه الخاص : فؤاد يريد أن يصبح ملكا لا سلطانًا صغيرًا . وملكًا مطلقًا . فهو لا يفكر فى خروج الأنجليز ، أو فى إعطاء الشعب دستورًا حقيقًا . لأن مثل هذا الدستور الحقيقى سيسلب منه من السلطات أكثر مما يسلب الأنجليز . وأصحاب المصالح الحقيقية من رجال حزب الأمة القديم يريدون ـ مثل فؤاد ـ زحزحة الأحتلال الذى يضع قبضته على كل شىء .. يريدون منه أن يتخلى لهم عن بعض مناطق النفوذ الداخلى . وأن يوضع دستور يجعلهم شركاء فى الحكم إلى جانب فؤاد . والحزب الوطنى دعوته إلى إخراج الأنجليز معروفة . وهناك ـ أخيرًا ـ أقوى هؤلاء جميعًا . والقوة التى لم يظهر تفوقها بعد : الطبقة المتوسطة التى تنمو وترغى وتزبد ومن ورائها جماهير الفقراء .. فهؤلاء يريدون دستورًا واسعًا . لا دستورًا يناسب فؤاد وحده ، أو يتسع للأعيان معه ، بل يتسع حتى يشملهم أيضًا ، ويجعلهم بدورهم شركاء . وهم يريدون الأستقلال ، وبحرقة ، لأنهم هم الذين ذاقوا أكثر من غيرهم لذعة الحرب والأحتلال : منهم سيق العمال وأختطف القمح والدجاج والنساء .. وهم الذين تشاحنوا مع جنود الأمبراطورية فى الشوارع وعلى محطات السكك الحديدية والحانات .. وهم الذين طحنهم كل هذا الغلاء ..

الكل إذن يريد التغيير ، ولكن مدى هذا التغيير مازال ـ فى البداية ـ غامضًا ،

مما يتيح فرصة ائتلاف هذه العناصر كلها ، وظهورها بمظهر الرأى الواحد ..

ويتمخض التفكير عن بذل مجهودين متوازيين : واحد رسمى وآخر شعبى .

مجهود رسمى فى شكل مباحثات رسمية ينهض بها رشدى رئيس الوزارة ، والوزير الذى يفكر له : عدلى .

ومجهود شعبى يتبلور فى حزب يضم كل الأتجاهات السابقة ، ويرأسه المرشح الوحيد للزعامة الشعبية ، وآخر من حفظ الشعب كلماته ، نائب القاهرة القديم : سعد زغلول .

وحين يتصل التياران بالأنجليز ، تظهر أول الفوارق :

رشدى وعدلى يطلبان من دار المندوب السامى السماح لهما بالسفر إلى مؤتمر الصلح « للكلام فيما عسى أن يكون عليه نظام الحماية » فهما يسلمان بسلطة الأنجليز ، بل وبالحماية ، ولكنهما يريدان (تنظيمًا) آخر .. دستورًا فقط يتيح لهم أن يحملوا عبء الحكم الداخلى .. ولكن الوفد يتكون على أساس آخر .. هو السعى بالطرق المشروعة فى سبيل « أستقلال مصر أستقلالا تامًا » وبرنامجه يجمع الهدفين : المادة الأولى تطالب بالأستقلال التام والمادة الثانية تطالب بالدستور .

ويطلب الوفد ترخيصًا بالسفر دون أن يحدد المهمة ، ويحاول المندوب السامى الأنجليزى أن يحصر مهمته من الآن فى نطاق الحماية أيضًا فيقول فى رده « أن كنتم تريدون تقديم أقتراحات بخصوص كيفية الحكم فى مصر بما لا يخرج عن الخطة التى رسمتها حكومة جلالة الملك (أى انجلترا) وأعلنتها من قبل .. » فيبادر سعد بالرد مسجلاً : « إنه ليس فى وسعى ولا فى وسع أى عضو من أعضاء الوفد أن يعرض

أقتراحات لا تكون مطابقة لإرادة الأمة المصرية المعبر عنها فى التوكيلات أى الأستقلال التام » .

ويمضى سعد فى إندفاعه ، مبتعدًا عن رشدى وعدلى ، فهو يلقى البيانات مطالبًا بالغاء الحماية تمامًا . وتمنع الحكومة ـ بالأحكام العرفية طبعًا ! ـ نشر بياناته فى الصحف فيطبعها فى منشورات ، ويوزعها فى الأقاليم . ويجابه الأنجليز والأجانب وكل المسؤولين بذلك مجابهة عنيفة فى إجتماع شهير عقدته الحكومة دعت إليه الكبراء لسماع محاضرة يلقيها مستر برسيفال . وأستمع سعد إلى المحاضرة فوجدها مبنية على أساس بقاء الأحتلال ، فوقف فى نهايتها يلقى بتعقيب طويل ، ويصدم الحاضرين بعنف . « .. فى سنة ١٩١٤ أعلنت أنجلترا حمايتها من تلقاء نفسها بدون أن تطلبها أو تقبلها الأمة المصرية ، فهى حماية باطلة لا وجود لها قانونًا ، بل هى ضرورة من ضروريات الحرب تنتهى بنهايتها . ولا يمكن أن تعيش بعد الحرب دقيقة واحدة ! » .

أنه ـ كما ترى ـ يقوم بواجبات الزعامة تمامًا .. ويترجم خلجات الشعب إلى صرخات .

ومع ذلك فهو ـ فى داخل الوفد ـ فى موقف لا يحسد عليه ! ! ... فكل أعضاء الوفد الكبار تقريبًا ـ إسماعيل صدقى وعبد العزيز فهمى ولطفى السيد ومحمد محمود وعلى شعراوى ـ هم رجال حزب الأمة القديم ، الذى يعنيه الدستور والحكم الذاتى دون الأستقلال التام .. ورئيسهم الحقيقى هو عدلى ، وليس سعد . ولكن سعداً كان يجابههم بقوة أخرى ، هى الرجال الجدد والشباب من نتاج الطبقة المتوسطة ، الذين يؤلفون لجان الوفد ، ويجمعون التبرعات المالية والتوقيعات على

التوكيلات .. ومن هؤلاء لا نكاد نجد بين أعضاء (الوفد) نفسه غيره : مصطفى النحاس .

ولمح عدلى هذا التطور .. وبات أنصاره يرقبون بأعينهم تجمع الجماهير حول سعد . حتى أصبح هو مركز الثقل . وأصبحت مواجهة الناس (بتنظيم الحماية) مستحيلة .. فعدل عدلى طلباته من الأنجليز : هو لا يكتفى الآن بأن يسافر مع رشدى ، بل لأبد أن يسافر معه سعد والوفد أيضًا .. فبهذه الطريقة يضيع على سعد فرصة التطرف والأنفراد ..

على أن إنجلترا ترفض الطلبات جميعًا . وتمنع الوزراء والوفد على السواء من السفر .. فيؤجل بذلك وقوع الخلاف ويطول أمد المحالفة بين عدلى وسعد .. بين الأعيان والمحامين الشبان .

ويقدم رشدى وعدلى أستقالتهما إحتجاجا على هذا المنع .. فتتلقاهما صدور الشعب بالتحية ..

ويهم فؤاد بالعمل على تشكيل وزارة جديدة .. فيرسل إليه سعد خطابا ، بل بيانا ، عنيفا جدًا : « .. قد نعلم أن عظمتكم ربما كنتم مضطرين لأعتبارات عائلية أن تقبلوا العرش ولكن الأمة من جهة أخرى كانت تعتقد أن قبولكم لهذا العرش فى زمن الحماية الوقتية الباطلة ـ رعاية لتلك الظروف العائلية ـ ليس من شأنه أن يصرفكم عن العمل لأستقلال بلادكم ! ! لذلك عجب الناس من مستشاريكم ، كيف أنهم لم يلتفتوا إلى أن الأمة فى هذا الظرف العصيب إنما تطلب منكم أن تكونوا لها العون الأول على نيل أستقلالها مهما كلفكم ذلك . كيف فات مستشاريكم أن عبارة إستقالة رشدى باشا لا تسمح لرجل مصرى ذى كرامة ووطنية أن يخلفه فى مركزه ؟ كيف فاتهم أن وزارة تؤلف على برنامج مضاد لمشيئة

الشعب مقضى عليه بالفشل ؟ .. إننا لا نكذب مولانا النصيحة إذا تضرعنا إليه أن يتعرف رأى أمته قبل أن يتخذ قرارًا نهائيًا فى أمر الوزارة الحالية ، فالحيلولة بين الأمة وبين طلبها مسؤولية لم يتحر مستشارو مولانا أمرها بالدقة الواجبة » .

هذا أخيرًا صوت تلميذ الأفغانى القديم ، وزميل عبد الله النديم .

نغمة جرئية جدًا ، فمنذ وقفة عرابى فى عابدين لم يتحدث مصرى إلى صاحب العرش بهذا الأسلوب .. بل أن لهجة التقريع هنا لا نجدها فى كل ما قاله عرابى . والمخاطرة هنا أعظم : كان عرابى يقف ووراءه الجيش المسلح أمام الخديوى الأعزل .. أما سعد فهو لا يقف مع القوة المسلحة ، بل ضدها ، والأنجليز هذه المرة موجودون . وكانت إنجلترا التى يجابهها سعد بهذا التحدى هى الدولة الأولى فى العالم ، المنتصرة فى الحرب ، التى يركع العالم عند قدميها وهى توزع الأسلاب .. وجنودها ليسوا بعيدين ، بل هنا .. فى قلب القاهرة ...

وهذا هو مغزى حركة سعد ..

إنه لم يجعل المطالبة بالدستور شيئًا مقصورًا على الأعيان والقلة الممتازين ، ولم يجعل الوطنية مجرد نشيد عذب ومبدأ أفلاطونى ، بل جعل الدستور والأستقلال قضية واحدة ترتبط بحياة الناس ، أو هو أدرك أتجاه الناس فتزعمه ، ووضع له الكلمات .. الأستقلال هذه المرة معناه أن يحكم الناس أنفسهم ، أن يأمنوا على أموالهم وقمحهم ودجاجهم وكرامتهم . أن يرسل الفلاح فى قريته نائبا يذهب إلى القاهرة ويعبر عن مطالبه .. فلا يهبط عليه الجباة فجأة يطالبونه بضرائب لا يعرفها ، ولا يعتدى عليه ضابط المركز وجنوده ويهينونه .. ولا يرغمه العمدة على أن يعمل فى أرضه مجانًا .. والشباب الذى يدخل المدرسة ، إنه لن يحتاج إلى نسب

عريض لكى يصبح موظفًا ، أو ليصنع لنفسه مستقبلا ، ولن ينال العلم لكى يحرمه الأنجليز من ثمراته ..

من هذه الحقائق الخطيرة فى حياة الناس خرج الحزب الجديد وولدت زعامة سعد .

وهو منذ أرسل خطابه هذا الخطير إلى فؤاد يصبح ثائرًا حقيقيًا .. إلا يدعو إلى العصيان وعدم دخول دخول الوزارة ؟ .. ألا تؤدى دعوته إلى توقف الحياة فى مصر تمامًا وإرتباك الجهاز الحكومى كله ؟ .. ألا يوجه بذلك ضربة عنيفة إلى الدولة فى صميم كيانها .. ويجعل أدواتها هامدة عاطلة ؟ ..

والزعيم لا يصنع الثورة أبدًا ، ولا يخلقها من العدم ، ولكن عوامل الأنفجار تتراكم فى قرارة الشعب تدريجيًا .. حتى يصبح الشعب كالبندقية المعبأة ، المسددة ، ضغطة واحدة على الزناد وينطلق البارود ، فكل مهمة الزعيم : أن يضغط على الزناد ! .

وهذا ما صنعه سعد . وقد كان يفخر دائما بأنه يسير وراء الشعب ، وليس الشعب هو الذى يسير وراءه .

توقف دولاب الحياة فى مصر أذن بفعل هذا الموقف الخطير .. فكان أول عصيان ومقاطعة يعرفها الشرق المكافح كله .. وسيتطور العصيان بعد سنوات إلى مقاطعة .. ثم يأخذه غاندى ويطوره ويفلسفه ويجعله سلاحًا قاطعًا . ويستدعى قائد الجيوش الأنجليزية سعد وصحبه ويأمرهم بالكف عن عرقلة تشكيل وزارة جديدة .. وألا ! ...

ويرفض الوفد الأحتجاج . ويتوتر الموقف إلى أقصى حد ..

عدلى وأصحابه ينتظرون نتيجة الصدام المؤكد بين الوفد والأنجليز ، ليروا هل يتراجع الوفد أو هل يغير الأنجليز رأيهم . وكلهم شك فى أستجابة هذا الشعب لأى عمل عظيم . وسعد يشعر بالموقف ولكنه يمضى إلى الصدام . ويبدو واضحًا إنه لم تبق إلا نقطة واحدة وتفيض الكأس . ضغطة خفيفة وينطلق البارود ... ويتخذ الأنجليز خطة الهجوم لتطهير الأرض من العصاة ، فينفجر تحت أقدامهم اللغم ! ..

فنى الساعة الخامسة من عصر ٨ مارس ١٩١٩ ، يحيط الجنود ببيت سعد ، ويقبضون عليه .. وعلى أكبر الأعضاء مركزًا فى الوفد : إسماعيل صدقى ومحمد محمود وَحَمَد الباسل .. ويرسلونهم منفيين إلى مالطة .

وتنفجر الثورة ..

وتكون أول ثورة وطنية فى العالم تنفجر بعد الحرب العالمية الأولى ! .

* * *

ونعبر الآن حوادث الثورة المجيدة ، كى لا نفقد خيط هذا البحث ، ونقول : أن الثورة أنتهت بالنجاح من نواح عدة ، وكانت لها آثار بعيدة جدًا .. يهمنا منها الآن أثرها المباشر : وهو سماح إنجلترا لكل من يشاء بالسفر إلى أوروبا ..

ويسافر المنفيون من مالطة إلى باريس رأسا . ويلحق بهم هناك أعضاء الوفد الذين كانوا فى مصر . فالآن يلتقى الجميع فى باريس : سعد زغلول . أسماعيل صدقى . حمد الباسل . محمد محمود . لطفى السيد . جورجى خياط . حنين واصف . سينوت حنا . عبد العزيز فهمى . عبد اللطيف المكباتى . محمد على علوبة . محمود أبو النصر . مصطفى النحاس . ويصا واصف . حافظ عفيفى . على ماهر .

فهل يتفقون ؟ .. كلا ، مع الأسف .. والسبب هو سعد !

يروى الدكتور حسين هيكل فى مذكراته أنه ذهب إلى لطفى السيد فى الأيام الأولى لتكوين الوفد . يسأل عن خطته ، فقال له لطفى السيد بصراحة : « إن خطتنا أن نسافر إلى باريس ، وأن نطرح قضيتنا على مؤتمر السلام ، وأن نطلب تطبيق حق تقرير المصير على مصر والسودان . فإن أجبنا إلى مطلبنا ، كان ذلك ما نبغى ، وإلا ذهب رشدى وعدلى إلى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية فى تنظيم العلاقة بين مصر وإنجلترا فى حدود الحماية تنظيمًا أساسه قيام الحكم الدستورى فى البلاد ، فقيام هذا الحكم يرفع عنا ما ننوء به من سلطة مطلقة ، شرعية كانت تلك السلطة أو فعلية ، ويدنينا من هدفنا فى الأستقلال ، إذ يتيح لنا فرصة النهوض بالشعب فى مدارج الرقى . فإذا بلغ أشده لم يكن لغيره سلطان » .

ونحن نصدق هذه الرواية . فهى منطقية جدًا مع ما أسلفنا من شرح لفلسفة حزب الأمة . معقول جدًا أن يكون هذا هو أساس تكوين الوفد المتفق عليه وأغلبية أعضائه من حزب الأمة ورسمهم هذه الخطة معقول لأن عنصر الشعب من ناحية لم يكن قد برز وأثبت وجوده ولأن الدول الصغيرة من ناحية أخرى كان أستقلالها يضيع فى كل مكان تحت أشكال مختلفة من الأنتداب (والوصاية) وما إليها . فرسموا خطتهم على أساس هذا الأمر الواقع الذى يفرضه المنتصرون على العالم .

على أن سعداً -فيما يبدو- قد نقض الأتفاق. فهو لم يهاجم الحماية بهدوء يسمح بقبولها فيما بعد . بل لقد هاجمها بعنف ، وذهب فى الحملة عليها إلى أقصى الحدود ، وأصبحت الحماية شيئًا كريهًا جدًا لا يمكن أن يخاطر بقبوله إنسان . ولما رأت انجلترا ذلك وأعتقلت الزعماء . أثبت الشعب وجوده ، وثار ثورة عنيفة لم يكن ينتظرها أحد . فأصبح الشعب عنصرًا جديدًا ، خطيرًا ، فى الميدان .

وقرر سعد أن يرتبط نهائيا بالشعب ، وأن يسير معه إلى آخر الحدود ... وأن

يرتبط بالبرنامج العلني الذى نشره الوفد من التمسك بالأستقلال التام ، متحللاً من « الأتفاق السرى » الذى يشير إليه لطفى السيد . بقبول الحماية إذا لم يمكن الحصول على ما هو أحسن ..

والأنجليز ـ مع الأسف ! ـ يدركون هذا الخلاف من بدايته ..

فبعد أيام من نشوب الثورة وقف وزير خارجيتهم كيرزون فى مجلس العموم يقول « إن الحكومة البريطانية لم تبد قط أدنى معارضة أو سوء نية نحو مجئ رشدى باشا وعدلى باشا إلى أنجلترا ، فإننا نرى دائما أن من أهم الأمور أن نتفق معها على تحديد الشكل الذى ستكون عليه الحماية البريطانية فى مستقبل الأيام . أما الحال مع سعد زغلول باشا فيختلف كل الأختلاف عنه مع هؤلاء . لأنه هو وأنصاره هم الذين دبروا هذه الأضطرابات .. وهم قوم غير مسؤولين غرضهم إخراج الأنجليز من مصر ! ! وقد أختاروا وقت إنعقاد مؤتمر السلام فى باريس موعدًا للقيام بهذه الحركة الثورية ، فلا سبيل للمناقشة معهم ! » .

هناك فى باريس إذن فئة متشددة ، سعد وحده تقريبًا ، وفئة متساهلة عمادها أعضاء حزب الأمة القدامى . ويشاركهم موقفهم عدلى .. الذى ما يزال فى القاهرة . والأحداث هى التى سترجح كفة التشدد أو التساهل .

وتجئ الأحداث بسرعة ، لتعجل بالأنقسام ، فما أن يضع الوفد قدميه فى باريس حتى تعلن أمريكا خيانتها لكل مبادئها التى كانت تتشدق بها وتعترف رسميًا بالحماية الأنجليزية فى مصر ، وتتبعها دول أخرى . ويوصد مؤتمر الصلح أبوابه فى وجه المصريين ..

وتدب موجة اليأس .. ويرتفع صوت طلاب (التسوية) .. ماذا ننتظر فى باريس بعد ذلك ؟ .. كيف نحطم الحماية ؟ .. وتشعر إنجلترا ـ فوق شعور ـ بهذا

الشقاق ، فتوجه ضربة ثانية : إذ تعلن إرسال لجنة ملنر إلى مصر لتحقيق الحوادث وإقتراح طريقة لتنظيم الحماية . وتثور أعصاب المتساهلين : يجب أن نعود فورًا إلى مصر لمفاوضة ملنر. أن الشعب الذى يرتكن إليه سعد يهدأ يومًا بعد يوم وثورته تقل . إضرابات الموظفين قد إنتهت . والقبضة الانجليزية تعود ..

ويهتز سعد . ولكن يدًا من الشعب تمتد إليه فتسنده . ففى القاهرة تصدر جريدة صغيرة أسمها (النظام) .. وتنشر الجريدة يومًا رسالة من قارئ مجهول يقترح مقاطعة لجنة ملنر .. ويتحمس المصريون للمقاطعة ، ويصممون ، والشعب الذى رسم الخطة ، وأثبت مرة أخرى حيويته البالغة ، ينجح فى المقاطعة نجاحًا منقطع النظير .. ويقرأ سعد التفاصيل : اللجنة تصل إلى القاهرة فى جو من الرعب .. أعضاؤها يركبون السيارات إلى سميراميس .. فى الطريق تطير قبعة زوجة أحد الأعضاء فيرفض سائق السيارة الوقوف لالتقاطها ، خوفًا من الناس . ويطير غطاء مقدم السيارة فيرفض الوقوف أيضًا . وسميراميس يحاصرها الجيش كأنها معسكر . ولكن الجماهير تركب القوارب فى النيل وتهتف أمام الفندق ضد اللجنة ، وبحياة سعد . وللريف قصص أخرى .. الفلاحون عرفوا بقدوم لجنة (الخواجات) فأصبحوا لا يتكلمون مع أى أجنبى .. إذا قابل (خواجه) فلاحًا وسأله : أين الطريق إلى البندر؟ .. أجابه : اسأل سعد باشا ! .. هل كان محصولك جيدًا ؟ ..

ـ اسأل سعد باشا ..
ـ هل لك أولاد ؟ .
ـ اسأل سعد باشا ..

ويقرأ سعد أنباء هذا التصميم الشعبى الرائع فيزداد تصميما على موقفه . ويتلقى خطابًا من عدلى يدعوه للحضور إلى القاهرة ومفاوضة اللجنة فيأبى .

ويعود ملنر فاشلاً ، ولكن بعد أن وضع يده على حقيقة الشقاق ، الذى سترسم إنجلترا سياستها المقبلة عليه .. فهو يسجل فى تقريره « أن الهيئة المستحقة الأعتبار المعروفة بالوفد ، التى تسلطت على عقول المصريين تمام التسلط ، مؤلفة من أعضاء أكثرهم ليسوا من الغلاة المتطرفين ، بل أصلهم من حزب الأمة القديم الذى كان غرضه التقدم الدستورى تدريجيا . بخلاف الحزب الوطنى الذى هو حزب الثورة ومعارضة البريطانيين . نعم أن زغلول باشا ورفاقه مالوا إلى المعارضين ومازالوا يدنون منهم شيئًا فشيئًا .. ولكن ظهر لنا بالأختبار أن الأمر لا يقتضى غير يسير من العناء حتى يستمال كثيرون منهم إلى المناقشة فى الحالة بتمام التعقل . وهذا يصدق على الذين هم أكثر منهم أعتدالا مثل رشدى باشا وعدلى باشا وثروت باشا » .

وضحت إذن خطة الأنجليز : توسيع شقة الخلاف بين المتطرفين والمعتدلين .. ثم إستمالة هؤلاء الأخرين للمناقشة فى الحالة « بتمام التعقل ! » ..

ويصل عدلى إلى باريس .. وتبدأ المبارزة الثانية بينه وبين سعد .. فهو يريد الآن ــ وقد فشلت الثورة فى تغيير رأى الأنجليز أن ينفذ الشطر الثانى من الأتفاق السرى القديم ، وهو المفاوضة لتنظيم الحماية .. وينضم إلى عدلى أغلب أعضاء الوفد ويصبح سعدًا وحيدًا ليس فى صفه إلا الشباب مثل مصطفى النحاس وويصا واصف وعلى ماهر..

ويفلح عدلى وأصحابه فى إقناع سعد بالسفر معهم إلى لندن لمباحثة لجنة ملنر.. ويسافر متوجسًا مترددًا لا يريد أن ينقسم الوفد وآمال الناس كلها مركزة عليه . ولا يريد أن يخرج عن حدود الوكالة التى وقع عليها الشعب . وفى لندن يلعب عدلى لعبة الوسيط البارع بين سعد والأنجليز .. واللعبة ــ من أولها ــ بارعة جدًا .. فعدلى لا يريد أن يقبل شيئًا إلا إذا ورط معه سعدًا ، حتى لا يعطيه فرصة المعارضة

والمقاومة والأفلات . وسعد راسخ صامد . وفى جلسة من جلسات المفاوضة يلتفت ملنر إلى عدلى ويقول له بالأنجليزية التى لا يعرفها سعد : ألا يكف هذا الرجل عن عناده ..

فيرد عدلى : لا فائدة ! ..

وبضغط من عدلى وأغلبية أعضاء الوفد أيضا يصلون إلى حل غريب : مشروع إتفاق رضيه عدلى ولم يرضه سعد لخروجه عن وكالة السعى (للاستقلال التام) .. فليعرض هذا المشروع على الشعب المصرى ليبدى فيه رأيه ، بالرفض أو بالقبول .. وقال ملنر أن هذا الأستفتاء سيكشف عن مدى قوة المعتدلين والمتطرفين .

ويكتب سعد ـ تحت نفس الضغط ـ رسالة مفتوحة ، محايدة إلى الشعب المصرى ، يعرض فيها المشروع ويحمل المشروع أربعة من رجال الوفد هم : محمد محمود ولطفى السيد وعبد اللطيف المكباتى وعلى ماهر .

أرسل سعد رسالة محايدة عن المشروع ليس فيها أى رأى شخصى له . ولكنه لا يريد أن يقصر فى أداء واجبه . وهو يخاف أن يصور الأعضاء الأربعة المشروع للناس على إنه إنتصار فأرسل خطابًا سريًا إلى مصطفى النحاس وزملائه فى القاهرة يشرح لهم فيه بالتفصيل رأيه الخاص فى المشروع : « .. إنى لست من رأى المشروع الذى ستعرضونه على الأمة .. لأنه ـ وأريد أن يكون الأمر بينى وبينكم ـ مشروع ظاهرة الأستقلال وباطنه الحماية » .. ويمضى فى شرح ذلك ثم يقول : « ولكن أخوانى لا يرون فيه رأيى . ولم أرد أن أظهر الخلاف بينى وبينهم حرصًا على الوحدة التى هى قوتنا ، ولكيلا يشمت الأعداء بنا . ولو أن أخوانى أصغوا إلى قولى أو لم أكن أخشى على هذه الوحدة من الأنقسام لفارقت لندن . وكان رفضنا به بالإجماع » ، ثم يقول عن (أخوانه) : « لا أريد أن أشكو منهم إليكم لأنهم إنما

رأوا ذلك لأسباب قامت عندهم ، أهمها تغير ظروف الحال وعدم وجود السند والنصير لنا فى الخارج وإنفراد الدولة الانجليزية بالعزة والسلطان وعدم قوة الأمة على متابعة المعارضة والمقاومة » .. هذه هى أسباب المستسلمين للأمر الواقع ، ثم يجئ رأى الثائر : « ... وأنى أعترف بأهمية هذه الأسباب ، ولكنها لا يمكن أن تقلب حقيقة المشروع من حماية إلى إستقلال ولا أن تجعلنا نرضى بما نهضنا لمقاومته وقمنا للمطالبة ببطلانه وما ضحت الأمة فى سبيل القضاء عليه بدماء الكثيرين من أبنائها .. » .

خطاب « سرى » نعم .. ولكن معناه أن أجهزة الوفد ستقاوم المشروع . وفعلا .. رفضه الشعب .

الآن .. لابد من الأنفصال .. لابد من أن يقف سعد فى جانب وعدلى فى جانب آخر .. ويذهب مع سعد الشبان الذين يمثلون الشعب الذى ثار والذى يقبل استئناف الثورة ، ويذهب مع عدلى أصحاب المصالح القدامى .. الذين يخافون من مقاومة طويلة للأنجليز تعصف بمصالحهم ، وتبعث الفوضى فى البلاد ، وأول خسائر الفوضى على مصالحهم ، والذين يريدون تسوية تنهى المشكلة وتحملهم فورًا إلى مقاعد الحكم ..

أما سعد .. فيبقى فى باريس ، وتستمر خطاباته « السرية » إلى النحاس توضح الموقف :

● « أشتد الخلاف فى الوفد اشتدادًا تعذر تلافيه مع ما بذلت من جهد وما وسعت من صدر وما ضيعت من حق وما ضحيت من شعور . ونقطة الخلاف الأخيرة تنحصر فى أن المخالفين يريدون تأييد عدلى فى خطته وأريد القضاء عليها

لأنها مضرة كل الضرر بالبلاد ولا يترتب على أتباعها إلا تأييد الحماية وضياع الأستقلال » .

● « .. طلب منى بعضهم أن أنشر بلاغًا أنفى فيه الخلاف وأؤكد تمام الأتفاق فلم أستحسن طلبهم لأن فيه تغريرًا بالأمة ومناقضة للحقيقة .. ولأن هذا الخلاف لا يرجع إلى أسباب شخصية حتى يهون أحتماله ويرجى زواله ولا يضر أخفاؤه ولكن يرْجع إلى الأختلاف فى الغاية والشعور .. فهم ملوا العمل وقطعوا الأمل ، وقليل ما أعطينا كثير فى نظرهم .. وقريب ما نرجو بعيد فى أعتبارهم » .

● ثم يشكو من تصرفاتهم : « لقد كتب لورد ملنر خطابًا لبعض أصدقائه بيدى نسخة منه جاء فيه « أن أصحاب زغلول باشا بذلوا آخر ما فى وسعهم لاقناعه بالقبول فلم يقتنع » فمن أين علم لورد ملنر بهذا المسعى ! .. ليس منى بالطبع ! » ..

● ثم يختم خطابًا آخر له بقوله « أن حزب الأمة عاد إلى بدايته وإنتهى إلى غايته .. أن الله لا يصلح عمل المفسدين ! »

إنه إذن ينقد أصدقاءه القدامى ، ويرى على ضوء الواقع الجديد أخطاء الماضى ..

وكان حزب الأمة قد بدأ يعمل فعلا ، بغير الأرتباط بسعد .. فهم يعودون إلى مصر متعاقبين : محمد محمود وحمد الباسل وعبد العزيز فهمى وعبد اللطيف المكباتى ولطفى السيد .. وينظم « أصحاب المصالح » فى القاهرة صفوفهم بزعامة عدلى ، وتسعى انجلترا لشد أزرهم ومقابلتهم فى منتصف الطريق فترسل بيانًا بأنها تعتقد أن « الحماية أصبحت علاقة غير مرضية » وتدعو السلطان فؤاد إلى تكوين وفد رسمى ليفاوض انجلترا .. وتسقط وزارة توفيق نسيم ، ويدعى عدلى إلى رئاسة الوزارة ، تمهيدًا للأضطلاع بالمهمة التى تنتظره ..

ويلمح سعد الخطة المرسومة فيسرع عائدًا إلى مصر ، لأول مرة منذ أخرجته منها سيارة انجليزية مصفحة ، ويجزيه الشعب عن هذا الجهاد إستقبالاً رائعًا لا مثيل له .. فالذين حملوا السلاح وقتلوا الانجليز يستطيعون أن يمنحوا التأييد الأدبي الكبير لمن يمثلهم .. فلا دار المندوب السامى ينظرون إليها ، ولا قصر عابدين ولا رئاسة الوزارة .. ولكنهم كلهم هنا .. فى بيت الأمة الصغير ، الذى جعلوه مركز الثقل .

ويستأنف سعد وعدلى المعركة ، التى مازالت حتى الآن لبقة خافية .. فعدلى الآن يتهيأ لمفاوضة الأنجليز بعد أن أعلنوا عدم تمسكهم بالحماية ـ نتيجة لتشدد سعد وجماهيره لا لتساهل أصحاب المصالح ـ وهو لا يريد أن يذهب إلى المفاوضة وحده ليقبل القليل فيشهر به سعد ، وهو لا يريد أن يرسل سعد ليفاوض فيتشدد هناك وتفشل المفاوضات ، فهو يعرض على « الوفد » أن يشترك فى وفد المفاوضات ببعض أعضائه .. ومادام الوفد برئاسته فمعنى ذلك أن سعد لا يشترك فيه ، ومادام الوفد سيشترك ببعض أعضائه فأبرز الأعضاء هم أصدقاؤه « الأعيان » .. وبذلك يفاوض ، ويبرم الأتفاقية ، ووراءه تأييد الوفد ..

وهكذا رسم عدلى بأنامله البارعة تلك الخطة الدقيقة .. ولكن سعد يلمح الفخ ، فيلتقط القفاز فى أصرار ويشترط لأشتراك الوفد فى المفاوضات : أن تكون المفاوضات على أساس الغاء الحماية والأعتراف بالأستقلال (فيكون دخوله المفاوضات على أساس الوكالة الشعبية) . وأن تكون له ـ لسعد ـ الرئاسة (ليحضر بنفسه المفاوضات) ، وأن تكون للوفد أغلبية الأعضاء (لتكون له الكفة الراجحة فى التصويت) . وأن تلغى الأحكام العرفية والرقابة على الصحف (لكى يجد سندًا قويا من الرأى العام) .

ويدرك عدلى أن خصمه مازال عنيدًا ، فيدور دورة بارعة ، ويحصر الخلاف

على شرط يستطيع أن يجرح فيه سعد ، هو : رئاسة الوفد ، فيقول إنه يجب أن تكون الرئاسة له لأنه هو رئيس الوزارة ولا يمكن أن يكون رئيس الوزارة مرؤوسا لأى شخص آخر فى وفد مشترك .. فإذا تمسك سعد بالرئاسة فمعنى ذلك إنه رجل يجرى وراء المجد الشخصى ، وإنه يريد كل رئاسة بأى ثمن ، وإنه يضحى بالموقف الجليل فى سبيل خدمة شخصية ..

وكما حبس الناس أنفاسهم منذ ثمانى سنوات ليروا من الأولى برئاسة الجمعية التشريعية : سعد الوكيل المنتخب أو عدلى الوكيل المعين ، انطلقوا كلهم يتناقشون : من يكون رئيس وفد المفاوضات : سعد « المنتخب » من الشعب زعيما ، أم عدلى « المعين » من القصر رئيسا للوزارة ؟ ..

وقد كان من حظ هذه المعركة الحاسمة ، أن أعيد « تنظيم » الحياة السياسية فى مصر .. فالوفد يتشقق ، والمستقلون يتفرقون .. وعبارة الوطنية الواسعة التى شملت الجميع أيام الثورة تنكشف عن فريقين لكل منهما طريق : القوة القديمة من الأعيان وأصحاب المصالح التى أعتادت أن تكون لها الغلبة ، والقوة الجديدة الزاحفة .. ولم يكن الناس يقال لهم فى ذلك الوقت وفديون وغير وفديين .. فالوفد نفسه منقسم لا يعرف أين يذهب .. بل كان يقال « سعديون » و « عدليون » ! ..

وانتشرت رقعة المعركة بسرعة : العدليون يقولون أن رجلهم هو رئيس الوزارة فلابد أن تكون له الرئاسة . وسعد يقول أن ذلك جائز فى بلد دستورى يكون رئيس وزرائها منتخبا من الشعب .. أما فى مصر فإن رئيس الوزراء يعينه السلطان ، والسلطان يعينه الأنجليز ، فمفاوضة رئيس الوزارة للأنجليز معناها أن « جورج الخامس يفاوض جورج الخامس ! » ..

وواضح جدا أن الحق فى جانب سعد .. فعلى أساس المطالبة بالأستقلال وسيادة الشعب لابد أن يكون سعد الرئيس .. ولم تكن أغلبية سعد محل جدل .. ولكن العدليين أصحاب المصالح الحقيقية لا يمكن أن يقبلوا هذه الفكرة بسهولة .. لا يمكن أن يسلموا بأن المطالبة بالدستور معناها سيادة هؤلاء الناس الجهلاء الفقراء .. فهم يطلقون عليهم أسماء « الغوغاء » و « الدهماء » و « الرعاع » وخضوع القلة الممتازين لهم ـ فى رأى القلة ـ معناه الفوضى ، فأنت ترى أن الوضع الإجتماعى الداخلى يلعب دورًا كبيرًا ، ويمتزج بالقضية الوطنية إلى حد بعيد.

ويصيح رشدى باشا فى وجه سعد ، فى آخر محاولة للتوفيق : هذا آخر ما عندنا .. ولتفعل ما تشاء ..

ويصرح عدلى للصحف : أن الوزارة ماضية فى طريقها ..

ويعتلى سعد المنبر فى سرادق هائل ويعلن الحرب على عدلى .. ويسمى خصومه برادع الانجليز .. ويصيح فى جماهيره الملتهبة : أن الوزارة فى مصر لا ينتخبها الشعب بل معينة من الحاكم ، من قبل عظمة السلطان ، بل بعبارة أصح من قبل المندوب السامى .. إن عظمة السلطة يمثل سلطة الحماية المضروبة عليكم رغم أنوفكم ، وسياسة مصر الخارجية بيد الدولة الحامية ، ورئيس الوزارة ليس إلا موظفا من موظفى الحكومة الأنجليزية ، يسقط ويرتفع بإشارة من المندوب السامى ، وهو بهذه الصفة لا يمكن أن يكون بإزاء رئيسه وزير خارجية إنجلترا حرًا فى الكلام ، لأنه مدين له بمركزه ، فإذا طلب سعد الرياسة فإنما يطلبها ليكون الرئيس حرًا ، مرتكزًا على قوة لا تهاب شيئا مطلقا فى المطالبة بحقوقها ، وهى قوة الأمة !

وينشق على الوفد أغلبية أعضائه ، أنصار عدلى ، وهم : على شعراوى ، حمد الباسل ، محمد محمود ، عبد اللطيف المكباتى ، أحمد لطفى السيد ، محمد على

علوبة ، ثم عبد العزيز فهمى ، حافظ عفيفى ، عبد الخالق مدكور ، ثم جورج خياط . ويبقى مع سعد : مصطفى النحاس ، على ماهر ، واصف غالى ، سينوت حنا ، ويصا واصف .. الأقل عددًا ، والأكثر شبابًا . ويبقى معه أيضا : الشعب كله ! ..

وكما كان من حظ هذه المعركة أن تخطط الحياة السياسية المصرية ، كان من حظها أيضًا أن توضع فيها كل تقاليد الصراع الحزبى ــ بخيرها وشرها ــ التى ستكون طابع الحياة المصرية لثلث قرن ..

فالمظاهرات الصاخبة تنطلق . مذكرة بأيام الثورة ، والحكومة لا تتركها تتلاشى بل تتعرض لها بالقمع العنيف ، فيسقط القتلى بالعشرات .. ويلهب سعد الثورة ، فينزل إلى الشارع ، ويغمس منديله فى دم قتيل ويصيح : أن هذا الدم على رأس عدلى ! ..

تلك هى معارك الشوارع التى لا سبب لها إلا عدم الخضوع لإرادة الناس ، مما يضطرهم إلى العنف ..

وتريد الحكومة أن تنقص من قيمة توكيل الشعب لسعد ، بعد أن أنفصل معظم أعضاء الوفد ، فتأمر رجال الأدارة والعمد بأن يجمعوا توكيلات لعدلى ! ..

وتلك هى بداية أستعمال نفوذ الأدارة لتزييف إرادة الشعب ! .وتبالغ الأغلبية فى إتهاماتها حتى تدمغ العدليين بالخيانة الكاملة .. وتلك هى بداية المهاترات التى لا منطق لها ...

وفى غمرة هذا كله ، يسافر عدلى ليفاوض .. ويترك وراءه رفيقه ثروت رئيس وزارة بالنيابة يحمل عبء مقاومة سعد بالقوة .. وأنصاره العدليون يقاومونه بالرأى .

وقد أتفقت آراء المؤرخين جميعًا على أن عدلى كان مخطئا فى إصراره على السفر والمفاوضة .. أتفق على ذلك حسين هيكل ، « من الأحرار الدستوريين » فى « مذكراته » وعباس محمود العقاد « وكان من الوفديين » فى كتاب « سعد » وعبد الرحمن الرافعى « من الحزب الوطنى » فى كتابه « أعقاب الثورة » وشفيق غربال « المؤرخ المحايد » فى كتاب « تاريخ المفاوضات » .. اختلف هؤلاء فى الأسباب ، وفى الحلول التى كانوا يرونها ، ولكنهم اتفقوا على حقيقة واحدة هى أن عدلى كان مخطئا بغير شك فى إصراره على السفر والمفاوضة ، والرأى العام ضده على هذا النحو ..

وتشبث عدلى هذه المرة يبدو غريبًا .. غريبًا عليه هو المترفع الزاهد ، واللاعب الرشيق الذى لا يشارك فى لعبة إذا رآها خاسرة . ولكن ، لعله الأمل الكاذب فى فوز قريب .. والعناد الذى أورثته الخصومة .. والموقف الحاسم الذى سيفصل فى مستقبل طبقته من جهة أخرى .. وإلحاح « أصحاب المصالح » عليه ودفعهم أياه ، مستترين وراءه .

ذهب عدلى إلى لندن أذن ، على رأس وفد كبير .. وبقى سعد فى مصر يحمل لواء المقاومة .. الصحف الناطقة باسمه تشن أعنف الحملات .. وهو لا ينقطع عن زيارة الأقاليم والقيام بالرحلات ، والقاء الخطب النارية .. ويقابل ثروت رئيس الوزارة بالنيابة هذا النشاط بالعنف فتقع حوادث دامية تعيد إلى الأذهان أيام الثورة .. خصوصًا حين سافر سعد إلى الصعيد فى رحلة نيلية ، ووقعت على شاطئ أسيوط مجزرة ، إنهال فيها الرصاص على الباخرة التى تقل سعداً ، واندفع المواطنون يحمون الباخرة بأجسادهم ، والبوليس يمنع الباخرة من الأقتراب من الشاطئ فيلقى الأسيوطيون بأنفسهم إلى البحر ، يسبحون إلى العملاق العجوز ، الواقف على

سطح السفينة .. وينجلى اليوم عن قتلى ، وجرحى ، غير من راحوا فى اليم غرقى !

* * *

يروى الدكتور يوسف نحاس فى كتابه « مفاوضات عدلى ـ كيرزون » أن عدلى أصر عليه أن يسافر مع وفد المفاوضة إلى لندن ، فذهب إلى سعد يسأله فقال له : إنك ستعمل عملاً فنيا .. فيجب عليك أن تقبل هذا التكليف لمصلحة بلادك !

سافر عدلى إلى لندن فى يوليو ١٩٢١ على رأس وفد كبير يتكون من ٣٠ عضوًا ... بين أعضاء ومستشارين وسكرتيرين ... ومكث هناك خمسة شهور متواليات .. أتصلت فيها المفاوضات عبثًا ..

وأول حقيقة تبدو لمن يدرس جو هذه المفاوضات وأوراقها .. هى أن سعد زغلول كان مشتركا فيها ، جنبًا إلى جنب مع عدلى ! لدينا محاضر جلسات المفاوضات .. ولدينا أقوال الذين أشتركوا فيها أو حاموا حول جوها .. ولدينا « يوميات » الدكتور يوسف نحاس التى تعتبر وثيقة أمينة جدًا لهذه المفاوضات .

كيرزون لا يفتأ يسأل عدلى عن سعد وما يصنعه فى مصر من شغب « أنى لا أعرف سعد باشا زغلول ولكن يبدو إنه على شىء من الغرور .. ويخيل لى إنه سيجعل مهمتكم شاقة ! » وعدلى لا يستطيع تجاهل آراء سعد ، ونفوذه الهائل ، فيقول أثناء مناقشة أحد التحفظات « .. لقد قدمه زغلول باشا على هذه الصورة ! » .. وهو خارج جلسة المفاوضة لا يفتأ يفكر فى سعد ، وما يمكن أن يصنعه ، ويهجس لأصدقائه قائلاً : .. « أنا مضطرب أكثر منكم ولكنى أسيطر على أعصابى .. وإذا كان ثمة هجوم فأنا أول من سيهاجم ، بل إننى أنا الوحيد الذى سيهاجم ، وحتى فى حالة قطع المفاوضات فلن أكون بمأمن من هجمات سعد ! » .

ويشعر بأنه وحيد .. وأن المسؤولية التى يحملها رهيبة هائلة .. فينفجر « سأرسل برقية أستدعى بها جميع الأعضاء المنشقين على سعد ليتحملوا المسؤولية معى ! » نعم فهؤلاء الذين أنشقوا على سعد ، وحاربوه ، ودفعوا عدلى إلى لندن ، ما بالهم يقعدون الآن فى القاهرة ينتظرون الثمار ، وهو فى لندن وحيد يلتقط لهم الكستناء من النار؟ ..

ولكن المنشقين ـ بصفة عامة ـ يريدون الأتفاق بأى ثمن . الوحيد منهم الموجود فى لندن هو إسماعيل صدقى .. وهو يرتكب مناورات تسىء إلى عدلى .. ويحاول توريطه فى التساهل إلى أقصى حد .. والمستشارون الشبان يضيقون بذلك حتى ليقدموا أستقالتهم احتجاجا على تصرفات صدقى ، ويقولون : لسنا مستعدين للأنتحار ! .. والوحيد الذى يثق فيه عدلى من المنشقين هو عبد العزيز فهمى ، فهو يفكر فى أستدعائه وحده على الأقل من مصر ، ولكن ثروت ـ نائب عدلى فى رئاسة الوزارة ـ يعارض فى ذلك لأن عبد العزيز فهمى « مدقق أكثر مما يجب » .. فثروت أيضًا يريد التساهل .. وإبراهيم الهلباوى يصل إلى لندن آتيا بالأنباء من مصر ، ويقول لمساعدى عدلى : أن من رأيى ألا تقطع المفاوضات مهما كانت الأسباب ، بل نقبل كل ما يسلم به الأنجليز ! .

ويتخاذل عدلى .. ولكن هنا مستشارو وفد المفاوضات يتشاجرون .. منهم من يدفع عدلى إلى هاوية التساهل ومنهم من يجذبه إلى بر التشدد .. منهم ـ يوسف نحاس ـ من يطالب ببيان قوى ويقول : إنه سيكون وثيقة من وثائق التاريخ : فيهز عضو آخر ـ عبد الحميد بدوى ـ كتفيه هازئًا ويقول : ها .. ها .. التاريخ !! ..

ويسجل يوسف نحاس فى يومياته صورة صادقة لموقف هذه البعثة المسكينة ، بين سخط مصر وأعراض انجلترا « .. إذا تأملنا حالنا جيدًا فسنرى كم مرة ضحك

منا ؟ وكم كنا موضع الأستخفاف ؟ أيعرض علينا مشروع أقل من مشروع ملنر الذى أبته مصر على بكرة أبيها ، ولا نتحرك نحن ؟ ! .. أن عدلى يبالغ فى التأدب والمجاملة ! » ..

والأنجليز يعرفون كل هذه الحقائق .. وهم ـ كما قلت ـ يبنون سياستهم على أساسها .. الحماية أصبح أستمرارها مستحيلاً بعد ثورة ١٩١٩ وبعد كل هذا التشهير الذى أصابها .. فلابد من التراجع خطوة .. خطوة واحدة إذا أمكن .. أما سعد زغلول فلا فائدة من التفاهم معه .. يبقى « المعتدلون » وهم قلة ، ضعفاء بأنفسهم .. هم فى قرارة أنفسهم يوافقون على ما يعرضه الأنجليز ، ولكنهم يخافون سعداً ، وسطوته الشعبية الهائلة .. فلابد إذن من ابعاده عن الميدان ، ثم التفاهم مع « المعتدلين » على الوضع الجديد .. وتقوية هذا الوضع حتى يصبح امرا واقعا .

هكذا رسم الأنجليز خطتهم البارعة ..

وبدأوا يلقون الكلمات أمام عدلى ، كالبذور ، تستقر فى نفسه وتنمو .. وتتبلور ..

أول بذرة : ان وجود سعد يعرقل الاتفاق .. فيقول لويد جورج لعدلى « إن الهياج والشغب الذى يحدثه زغلول يزعج الوزراء واعضاء مجلس العموم ويخيفهم . وهم لا يرضون بحال ان يطأطئوا الرؤوس إمام زغلول ، او ان يسلموا مواصلات الأمبراطورية إلى بلد يقودة زعماء يصارحون انجلترا بالعداء ! » .

ثم يشير لويد جورج بلباقة إلى احتمال نفى سعد .. فهو يتساءل كيف لا تتخذ الحكومة اجراءات شديدة ضده .. ولماذا لا يؤجل البحث عن حل حتى تهدأ الحال .. أى باسكاته .. ولكن عدلى يعرف سعداً ، ويعرف المصريين ، فيقول :

ان اتخاذ التدابير الشديدة ضد شخص سعد باشا لا يخلو من الخطورة ، ومن شأنه ان يعقد المسألة ..

وينهض لويد جورج وهو يقول : يجب التخلص من زغلول .. يجب التخلص من زغلول ..

وفى جلسة أخرى يشير كيرزون إلى ما تنتظره انجلترا من عدلى ، فيقول له ان أى مشروع تقدمه انجلترا سيحتاج تنفيذه الى « معاونة ذوى النفوذ مثلك » .. ولكن عدلى ايضا يعرف سعداً ويعرف المصريين فيقول : «انه ارتبط فى تشكيل الوزارة ببرنامج معين ، وإنه لا يستطيع ان يستمر على غير اساسه » .

وتنمو البذور فى نفس عدلى ، الأنجليز لن يتركوا سعدًا طويلا .. و « السلطان » أحمد فؤاد نفسه قال له قبل سفره : إنه لن يرضى بتشكيل وزارة يرأسها سعد أو تمت إليه بأى صلة ! .. وهو ـ عدلى ـ وأصحابه لا يستطيعون قبول ما يعرضه الانجليز . ومع ذلك فأن ضياع ما يعرضونه خسارة .. فلم يبق الا أن ينفذ الأنجليز ما يعرضون .. بغير قبول رسمى من مصر .. اى من جانب واحد ..

ويتحدث بهذه الخواطر مرة يوسف نحاس « أرى أن ثمة حلولا ثلاثة للخروج من هذا المأزق : أولها الثورة ، ولسنا مستعدين لها استعدادا كافيا .. وثانيها الوسائل السلمية ، وثالثها : ان يمنحها البريطانيون النظام الجديد مباشرة ، ومن غير ان نوقع على معاهدة » .

ثم يتحدث عن تشكيل حزب يحمل مسؤولية ما بعد ذلك .. « هل يا ترى سنوفق إلى الاشخاص الذين ينضمون إلى الحزب ويسيرون تحت لوائه ؟ ومن اين نجد المال اللازم ؟ ألا يخشى ان تقوم المنازعات بينهم من أول يوم ؟ » ..

الخطة تتبلور فى ذهنه .. وأساسها زحزحة سعد .

* * *

عاد عدلى إلى مصر وهو يعلم .. يعلم ما سوف يحدث إلى حد يقرب من اليقين .. وهو يقر هذا الذى سيحدث . ولكنه يراه على اية حال مخاطرة غير مضمونة النتيجة ، ثم هو لا يحب ان يتحمل المسؤولية الأدبية عن تصرفات الانجليز المقبلة .. خصوصا بعد الاستقبال الكريه الفظيع الذى قابلته به الجماهير عند عودته .. والذى وصل إلى حد القاء الأوساخ والقاذورات على رأسه . وهو جالس فى سيارته .. لذلك فلم يكد يصل حتى قدم استقالته من الوزارة ..

ولكن الانجليز ـ والقصر ـ لا يريدان تركه الان .. فتعلق الاستقالة اياما طويلة بغير رفض أو قبول .. ويتزايد قلقه .. فالموقف يتكهرب .. الأنجليز عازمون على توجيه الضربة إلى سعد بغير شك .. فمنذ شهور بعث مندوبهم اللورد اللنبى فى مصر إلى وزارة الخارجية الانجليزية يقول « لقد وصل زغلول إلى حالة من الزهو والترفع لا يبعد معها أن يهم بضربه كضربة عرابى » .. وسعد سادر فى تطرفه ، عازم على أن يسلك طريق الثورة ، التى يرى عدلى « أننا لسنا مستعدين استعدادا كافيا لها » ..

وفى يوم ٢٢ ديسمبر ١٩٢١ وجهت السلطة الأنجليزية إلى سعد وأعضاء الوفد أنذارًا بأن يكفوا عن أى نشاط سياسى من إلقاء الخطب أو الكتابة فى الصحف أو ما إلى ذلك ، وأن يغادروا القاهرة إلى بلادهم فى الريف ..

وأذعن من أعضاء الوفد ثلاثة ذهبوا إلى بيوتهم فى الريف فعلا هم : أمين عز

العرب وصادق حنين وجعفر فخرى . فأهالوا على أنفسهم غبار النسيان .. ورفض الباقون : سعد زغلول ، فتح الله بركات ، عاطف بركات ، سينوت حنا ، مصطفى النحاس ، مكرم عبيد . وكتب إلى الجنرال الأنجليزى الرد الشهير « .. سأبقى فى مركزى .. مخلصًا لواجبى .. وللقوة أن تفعل بنا ما تشاء أفرادًا وجماعات ، فأنا جميعا مستعدون للقاء ما تأتى به ، بجنان ثابت ، وضمير هادئ » ..

وتندلع المظاهرات فى شوارع القاهرة ، مصطدمة بالأنجليز ، عاصفة بكل شىء .. ويسرع الشباب إلى حديقة بيت الأمة وقد قرروا أن يدافعون بصدورهم عن سعد إذا حاول الأنجليز انتزاعه ، فلا ينصرفون إلا حين هددهم سعد بأن يبيت تلك الليلة الشاتية معهم فى الحديقة .. وفى الصباح الباكر يأتى الانجليز ..

ويصف « عبد القادر حمزة » خروج سعد إلى المنفى فى سطور خالدة :

« .. كان هناك جماعة قليلون من عامة الشعب ، فهموا أن أباهم سعدًا سيؤخذ فوقفوا ، ولولا أنهم رجال ، وإنهم يرون خصمهم أمامهم ، ويكرهون أن يشمت فيهم ، لا رسلوا الدموع .. ولم تكن بى حاجة لأن أجرب دخول بيت الأمة ، لأن الجنود كانوا يضربون نطاقًا حوله ونطاقًا على بابه ونطاقا فى حديقته ، وفى أيديهم البنادق كأنهم يتأهبون لمعركة حامية .

« وما مضت دقيقتان أو ثلاث حتى ضج فجأة كل الذين حولى ، فنظرت فإذا سعد مقبل وأمامه ضابطان ومن خلفه حاجب وخادم .. وهم جميعًا يمشون فى نطاق من الجنود .. رأيته يمشى بعد أن نزع من أهله وبيته وأحيط بالجند والسلاح وفتح أمامه باب التضحية على مصراعيه ، مجهول الأول مجهول الآخر ، فأقسم ما رأيت فيه وفى مشيته ألا بطلاً عالى الرأس مطمئن النظرات .. ولوددت أن رآه

معى فى تلك الساعة كل أبناء مصر .. إذن لرأوا سعدهم أسدًا ، هو أثبت ما يكون حين تنازله الحادثات .

«كان يمشى هادئًا منبسط الجبين ليس فى خطوه أسراع ولا تثاقل . ولا فى نظراته ولا فى حركات جسمه أثر واحد يدل على قلق أو اضطراب .. ويده اليسرى فى جيب معطفه ويده اليمنى تحرك عصاه حركة عادية منتظمة كأنه لا يرى لكل ما هو واقع ولا لكل الذين هم محتاطون به وجودًا أكثر من العدم ..

« وما رأيته تلفت يمينًا أو شمالاً ، ولا وقفت عينه عند واحد من الذين يرافقونه مسلحين ، ولكنه لما رآنا نحن واقفين مد نظره إلينا وسرحه فينا ، وحينئذ لم يملك بعضنا أنفسهم ، وسمعت فى الحال قائلا يقول والبكاء يغالبه « إلى أين يا سعد ؟ إلى أين ؟ إلى أين ؟ » ثم غلبه البكاء فانتحب ، وأنتحب الكل معه ..

« أنتحبوا وضجوا لأن نصيرهم كان قد بلغ الغاية .. ولقد كانوا إلى ما قبل هذه اللحظة حانقين يأبون أن يرى الخصم فيهم ضعفًا ، ولكنهم لما شاهدوا بأعينهم سعدهم يؤخذ هذا الأخذ إلى حيث لا يعلم ولا يعلمون ، تهدم عزمهم كله ولم يبق فيهم جلد .

« وصمم صبية على أن يخاطروا بأنفسهم فجروا خلف سعد ، عشرين أو ثلاثين ، كأنهم يهجمون صفًا متساندًا فى معركة منظمة ، فلما رآهم الجند حولوا وجوههم إليهم وصوبوا البنادق نحوهم يهددونهم بالموت أن هم تقدموا ، ومازال الجنود كذلك وهم يمشون بظهورهم ، حتى وصلوا إلى الأتومبيلات وركبوا .

« ركب سعد وركب الضابطان وركب الجنود كلهم .. ثم تحركت الأتومبيلات ، فلا والله ما رأيت فى حياتى ساعة كتلك ، هلعت فيها القلوب وأرتجفت الأقدام ، وأشتد البكاء وعلت الأصوات تنادى وتقطعها الزفرات

« سعد .. يا سعد .. إلى أين يا سعد » وأمتدت الأيدى إلى الأوتومبيلات كأنها تستعطفها وتسألها أن تقف ، ولكن الأوتومبيلات مضت كأنها البرق الخاطف ، وتركت الناس فى مكانهم يصيحون ويبكون » .

أليس هذا غريبًا حقًا ؟ ..

المألوف أن الإنسان يكون متحمسًا متطرفًا شجاعًا فى شبابه ، فإذا تقدم به العمر وعرف رخاوة المناصب ، هدأت حماسته وذاب تطرفه . والنادر من الناس من يحتفظ بحرارته كلها إلى سن الكهولة .. والشباب المتحمس عادة يتطرف ويضحى وأمامه المستقبل فسيح يستطيع أن ينال فيه المكافأة عن تضحياته .. أما سعد ، فقد كان على العكس من ذلك تمامًا .. فهذا الذى كان فى شبابه معتدلا ، وعرف مناصب القضاء ١٤ عامًا ، وجلس فى كرسى الوزارة ست سنوات متواليات ، وصاهر الطبقة الأرستقراطية .. يصبح بعد ذلك كله مجاهدًا متطرفًا .. فهو فى سن الثانية والستين ــ سن الراحة والأحالة إلى المعاش ــ يتزعم الثورة ، وفى سن الثالثة والستين يستقبل المنفى البعيد ، المجهول الأول والمجهول الآخر ..

وقد أرسل سعد إلى سيشل بالذات لأن هذه المنطقة مقرونة فى الأذهان بنفى أحمد عرابى .. حتى ييأس الناس من عودته . وكان سعد نفسه فى سيشل كثيرًا ما يؤمن بأنه لن يعود ، فيحدث صحبه بهذا المعنى ، خصوصًا حين كان يرى نفسه مريضًا ، وفى هذا الجو الرهيب ، فإذا به فى بعض الأيام يعجز عن النطق ، يكاد صدره يختنق بالربو الذى يسكنه ...

فماذا فى مصر؟ ..

عدلى قبلت إستقالته ، بعد أن أستعجلها عدة مرات ، فهو فى بيته ينتظر الأحداث .. أما الشعب فإنه يقدم على تجربة جديدة :

فإلى جانب المظاهرات ، والأصطدامات ، والدماء التى تسيل .. أصدر الوفد قرارًا يدعو فيه الشعب إلى المقاومة السلبية .. وكان « العدليون » الذين أنشقوا على سعد من زمن ــ عبد العزيز فهمى ولطفى السيد ومحمد محمود ومحمد على علوبة وحافظ عفيفى ــ قد عادوا إلى صفوف الوفد بعد أعتقال سعد .. ولكنهم لما رأوا المقاومة تشتد ، والحركة تتجه إلى ثورة جديدة عنيفة ، رفضوا أن يوقعوا على بيان المقاومة السلبية ، فأنشقوا عن الوفد من جديد ، وعادوا « عدليين » ..

وكانت المقاومة السلبية التى دعا إليها الوفد ، من شقين :

الأول ــ عدم التعاون .. فـ « ليس لعامل مصرى أن يخدم أنجليزيا ولا لمصرى أن يستخدم أنجليزيا .. فلا يوكل محاميًا انجليزيا ولا يستشير طبيبًا انجليزيًا » .. وعلى الأهالى أن يتجاهلوا وجود الموظفين الأنجليز فى المصالح وأن يرفعوا أعمالهم إلى الموظفين المصريين فقط .. وعلى المحامين أن يعملوا على فض المنازعات المنظورة أمام قضاة أنجليز فى المحاكم بالطريق الودى .. وعلى الموظفين الخاضعين لرؤساء انجليز أن لا يتلقوا منهم الأوامر ولا ينفذوا تعليماتهم ، بل يعمدون إلى تصريف الأمور بمحض وطنيتهم .. أى عدم التعامل بأى صورة من الصور مع أى انجليزى من الأنجليز الذين كانوا منبثين فى الحكومة والتجارة والقضاء وفى كل ميدان .. وكان على رأس بنود عدم التعاون : أمتناع أى سياسى مصرى عن تشكيل الوزارة مادام الوضع الحاضر قائمًا ... وليحكم الأنجليز بالقوة السافرة إذا شاؤوا ...

والثانى ــ المقاطعة .. فعلى المصريين أن يقاطعوا البنوك الأنجليزية بسحب ودائعهم منها ووضعها جميعًا فى بنك مصر .. وعلى التاجر المصرى الذى يستورد بضاعته من الخارج أن يشترط أن لا تأتى بضائعه على سفن أنجليزية .. وعلى المسافر المصرى أن لا يستعمل البواخر الأنجليزية .. وعلى عمال الموانئ أن يمتنعوا عن شحن

أو تفريغ السفن أو البضائع الأنجليزية .. وعلى كل مصرى أن لا يتعامل مع أى شركة أنجليزية ، كشركات التأمين وغيرها .. وعليه أن لا يشترى إلا البضائع المصرية .. وأن يقاطع المهمات الأنجليزية والسلع الأنجليزية مقاطعة تامة .. والعمل على أستيراد الضروريات من بلاد غير انجلترا ..

ومضت لجان الوفد تنفذ هذه القرارات الخطيرة وتبشر بها .. فى البيوت والمساجد والكنائس .. عن طريق النقابات والجمعيات والهيئات ..

ووقع على هذه القرارات الخطيرة أعضاء هيئة الوفد الثانية التى تألفت بعد نفى سعد وصحبه : حمد الباسل ، ويصا واصف ، على ماهر ، جورج خياط ، مرقص حنا ، علوى الجزار ، مراد الشريعى ، واصف غالى .

وأعتقل الأنجليز هؤلاء الأعضاء ، فتكونت هيئة وفد ثالثة من : المصرى السعدى ، حسين القصبى ، مصطفى القاياتى ، سلامة ميخائيل ، فخرى عبد النور ، نجيب الغرابلى .

وعاشت البلاد شهرين من المقاومة والفوضى . مقاعد الوزارة خالية ، لا يجرؤ حتى أرخص المستوزرين على الأقتراب منها .. والجهاز الحكومى الذى يسيطر عليه الأنجليز فى حالة شلل مطلق .. والأغتيالات تتربص فى الشوارع المظلمة .. والصحف تعطل بالعشرات .. وثكنات قصر النيل مكتظة بالمعتقلين .. ولا أحد يدرى إلى أين المصير ..

وعاد الأنجليز يفكرون فى الحل الذى بحثوه مع عدلى .. أن يسلموا من جانبهم بالحقوق التى وافقوا على أعطائها لمصر ، دون أن توقع مصر صكا بقبولها .. لأن أحدًا فى مصر لا يمكن أن يقدم على هذا التوقيع فى وجه هذه المقاومة ..

ولعب عبد الخالق ثروت الدور الأول فى هذه الأتصالات .. وصدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ من جانب واحد وبمقتضاه أعلنت أنجلترإنتهاء الحماية ، والأعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة ... مع تحفظات أربعة : تأمين مواصلات الأمبراطورية . الدفاع عن مصر .. حماية المصالح الأجنبية والأقليات .. السودان .. يترك البت فيها لمفاوضات حرة مقبلة .. وكان المتفق عليه أن يصدر دستور وأن ينتخب الشعب برلمانًا ، وأن تقوم الوزارة البرلمانية بهذه المفاوضات ..

وعلى أساس هذا التصريح ، ألف ثروت الوزارة .. وأعلن الأستقلال .. ونودى بفؤاد ملكًا .. وتألفت فى ٣ إبريل سنة ١٩٢٢ لوضع الدستور ..

كانت هذه الخطوات كلها مكاسب لمصر ، لا شك فى ذلك .. إذ عادت شخصيتها الدولية إلى الظهور .. وأصبح ممكنا أن يتولى أبناؤها أمور الحكم فيها .. وأن كان ذلك أدنى من الأستقلال التام بكثير .. وهنا يتردد سؤال مزمن : لمن كان الفضل فى هذه الخطوة ؟ ..

للساسة الذين قاموا بالأتصالات مع الأنجليز حتى صدر تصريح ٢٨ فبراير ؟ ..

أم للزعيم الذى يسكن سيشل ؟ ..

إنه قطعًا للزعيم الذى يسكن سيشل .. ولا أقصد بذلك أن الفضل يعود له شخصيًا . ولكن يعود إلى الجماهير التى يمثلها .. فلو كان الأمر للمعتدلين لقبلوا « تنظيم الحماية » دون أن تنشب ثورة أو يراق دم .. والانجليز عندما أصدروا هذا التصريح لم يكونوا واقعين تحت ضغط الساسة المعتدلين .. ولكن تحت ضغط الجماهير التى تقاطع بضائعهم ، وتقتل موظفيهم .. وترهب المستوزرين إذا طافوا بمقاعد الحكم .. الجماهير التى لا يعرف أحد إلى أى مدى يمكن أن تذهب مقاومتها .

ولم تتوقف المقاومة بعد صدوُر التصريح وتشكيل وزارة ثروت ، فالأغتيالات مازالت تترى وأعضاء الوفد يعتقلون فوجًا بعد فوج . ويقدمون إلى المحاكمة ، وتصدر ضدهم الأحكام بالأعدام ، وثروت يلجأ إلى أسلوبه العنيف فى القهر . فيصادر الصحف بكثرة ، ويصدر الأوامر بعدم ذكر أسم (سعد) فى الصحف أو فى أى مجال آخر .. حتى أصبح من له ولد أسمه سعد يخاف إذا ناداه فى الطريق أن يتعرض له البوليس بما يكره ! وأصبح الواحد من الشباب يمر بأحد جنود البوليس فيصيح (يا سعد) ثم يجرى ...

ولكن المقاومة الشعبية لا تصل إلى حد عرقلة الخطة الجديدة . وهذه الخطة الجديدة أو هذا البناء الجديد الذى يقام يحتاج إلى من ينهض به . ويجتمع أعضاء حزب الأمة القدماء ، والذين يطلق عليهم منذ الثورة أسم حزب عدلى ، يجتمعون ويقررون تكوين حزب رسمى جديد . وهذا منطقى جدًا : فقد كانوا من قديم يطالبون بإستقلال نسبى يتيح للمصريين فرصة توجيه جهاز الحكم فى مصر ، والدستور يجعل (الأمة) سلطة ثالثة إلى جانب السلطة الشرعية (القصر) والسلطة الفعلية (الأنجليز) ، وهذا النبأ الجديد ليس إلا تحقيقًا كاملاً لهذه الأهداف ..

ويتكون حزب الأحرار الدستوريين ، أعضاؤه هم تقريبًا أعضاء حزب الأمة القدامى ، وهم أعضاء لجنة الدستور القائمة . ويرأس الحزب عدلى . ويكتب له خطبة الأفتتاح نفس المفكر الذى رسم فلسفة الأعيان منذ خمس عشرة سنة : أحمد لطفى السيد ، ويصدر الحزب جريدة (السياسة) لتكون لسانًا له ، يرأس تحريرها الدكتور محمد حسين هيكل .

ويتم وضع الدستور . وبالرغم من إنه نص على أن (الأمة مصدر السلطات) إلا إنه لم يلغ سلطة الملك . فظل بذلك تدخل الملك فى شؤون الحكم ، شرعيًا .

ولم يكن ممكنًا أن يصدر الدستور على غير هذه الصورة مادامت قد وضعته لجنة ترعاها الحكومة ، ومادام لابد له من موافقة الملك لإصداره . ولو أنه قد وضعته جمعية وطنية منتخبة من الشعب كما طالب سعد لألغيت سلطة الملك تمامًا . ولكن مصر لم تكن قد نضجت بعد حتى تقوى على تحقيق هذه الغاية ، فجاء الدستور ناقصًا .. وأن كان خطوة كبيرة إلى الأمام ..

على أن الخلاف القديم بين القصر والأعيان المصريين يتجدد ، فالملك فؤاد يبدأ فى مناورات للعبث بالدستور قبل أن يصدر . وتسقط وزارة ثروت ويتولى الوزارة رئيس سابق للديوان ، ورجل ترافع منذ سنوات ضد محمد فريد بتهمة إنه يطالب بالدستور : توفيق نسيم . فحاول أن يحذف عدة فقرات من الدستور ، منها الفقرة التى تنص على أن (الأمة مصدر السلطات) .. ثم يعقبه يحيى إبراهيم . ونجد محاضر جلسات حزب الأحرار الدستوريين قرارات متوالية تطالب بصدور الدستور كما وضعته اللجنة . ويقوم عدلى وأصحابه باتصالات كثيرة لهذا الغرض .. ويشن عبد العزيز فهمى ــ صاحب الجهد الأكبر فى وضع الدستور ــ يشن حملة عنيفة على تلاعب القصر فى صورة خطابات مفتوحة إلى رئيس الوزراء (.. إنك لابد قائل معى ومع كل من لا يليه نعيم يومه من شقاء غده أن السيادة هى للأمة والسلطان للأمة ومصدر كل ولاية فى البلاد هو الأمة) ...و... (كأنما ضحى المصريون بما ضحوا لفائدة رجال السراى ، وكأنما تنازل الأنجليز عن الحماية وأعترفوا لمصر بحق التمثيل الخارجى لفائدة السراى !) .

وكان توفيق نسيم قد برر رغبته ــ أى رغبة القصر ــ فى حذف فقرة (الأمة مصدر السلطات) بأن فيها جرحًا لأحساس الملك ! ! فرد عبد العزيز فهمى (.. إذا كانت سيادة الأمة وكونها مصدر كل سلطة هى أهم ما تسعى الشعوب لحمل

أمرائها على الأقرار به لها وهى التى تقوم الثورات وتثل العروش لا ستنقاذها من براثن هؤلاء الأمراء ، فما معنى أن تكون تلك السيادة آتية لمصر من تحت أنياب الأنجليز بعد الجهود والتضحيات الكبرى التى قام بها المصريون فى وجه الأنجليز ، ثم يأتى أناس من المصريين أنفسهم فيهبونها غنيمة باردة لأمراء البيت بتلك العلة ، علة عدم جرح الأحساس ؟ اللهم أن هذا كلام المستهزئين الذين يستضعفون هذه الأمة فيضيعون أهم حق لها بمثل هذا التعليل السخيف !) .

ويكون لهذه المقاومة العنيفة فضل صدور دستور ١٩٢٣ بصورته المعروفة .

وتبدأ التهيئة لأستقبال الحياة الجديدة والعمل على أن تكون هادئة . ولكن المقاومة الشعبية مازالت مستمرة ، والقنابل والأغتيالات تغمر القطر . وقبل صدور الدستور بأيام أعتقلت السلطة الأنجليزية هيئة الوفد الثالثة ، وتكونت هيئة رابعة دعت إلى مواصلة الكفاح ، ووقع البيان : حسن حسيب ، على الشمسى ، سلامة ميخائيل ، حسين هلال ، مصطفى بكير ، إبراهيم راتب ، عطا عفيفى ، عبد الحليم البيلى .. فلابد للتهدئة من إتخاذ قرار حاسم : الأفراج عن سعد وصحبه ..

ويعود سعد فتستقبله الجماهير أستقبالاً لم يسبق له مثيل قط ..

ويخوض معركة الأنتخابات الأولى ثلاثة أحزاب : الحزب الوطنى وحزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين . ويكتسح سعد المعركة أكتساحًا رهيبًا .

وكان الأحرار الدستوريون يعتقدون حتى ساعة المعركة إنهم فائزون فيها ، فأذهلتهم النتيجة . فحتى ذلك الوقت كانوا على غير بينة من ظهور القوة الجديدة . أو من الصورة الجديدة (للأمة) فكانت دهشتهم بالغة عندما وجدوا أن الذين نجحوا فى الأنتخابات ليسوا هم الأعيان ورؤساء العائلات وأصحاب الأطيان ، ولكنهم الثوار والمحامون الشبان .. الذين رأسوا لجان الأقاليم وتزعموا الشعب

وجمعوا التوقيعات ! .. ولم يفز من غير حزب سعد إلا عشرة فقط : ستة من حزب الأحرار ، وأربعة من الحزب الوطنى ! ..

وأمسك الملك فؤاد الذى أقسم لخاصته منذ خمس سنوات أن لا يعين وزارة لها أى صلة بسعد .. أمسك القلم ليوقع خطابا بتكليف سعد تشكيل الوزارة .. ورد سعد بخطاب يؤكد فيه إنه آت بارادة الأمة وحدها .. وإنه ينوى « عدم السماح لأى كان » بالاستخفاف بالروح الدستورية ، كما إنه وضع برنامجه « طبقًا لما رآه وتريده الأمة ! » ...

ويدخل هذا الفلاح قصر الملك .. يحدثه بكلام لا مواربة فيه عن إرادة الأمة .. وإذا أختلفت معه ، قال له ببساطة : إذا أستشير الشعب ! .. فينظر فؤاد من النافذة ، ويرى الجموع تهتف لزعيمها ، فيحول بصره إلى كلمة (الصبر) التى يضعها على مكتبه ، ويسكت .

الآن .. تحققت نبوءة لطفى السيد بحذافيرها ، لا أقل .. ولا أكثر ..

ولكن (الأمة) التى أتخذت مكانها بين القصر والأنجليز ليست هى بالضبط (الأمة) التى تحدث عنها لطفى السيد ، والتى حاول أن يرسمها حزب الأحرار الدستوريين . الأمة التى ظهرت ليست هى الأعيان ورؤساء العائلات بالضبط . فماذا يصنع الأحرار الدستوريون ؟ ..

هل يقبلون التطور .. كالفلاسفة ؟ .. كلا ..

هل يتمسكون بالمبادئ التى دعوا إليها بصرف النظر عن نتائجها بالنسبة إليهم ؟ .كلا .

إنهم يتنكرون الآن لها .. وعبد العزيز فهمى نفسه يقول بعد مولد دستوره

بسنتين إنه (كان يظنه مناسبًا لبلادنا ولكن العمل أثبت إنه ثوب فضفاض !) .. والقوتان الأخريان ـ الأنجليز والقصر ـ لم تسلما طبعًا بظهور (الأمة) كقوة ثالثة . ثم أن هذا الطرف الثالث يقوى ويشتد تدريجيًا .. فلو تركت له الحياة النيابية فسوف ينتهى به الأمر إلى تحطيم القوتين الآخريين . ويتحالف الأنجليز والقصر ، ويتربصان بالحياة النيابية الدوائر ، ويتحالف معهما ـ ويا للأسف ـ حزب الأحرار ...

فاذا قتل الوردانى سردار الجيش الأنجليزى فى شارع القصر العينى أهتزت الدنيا ومادت الأرض تحت الأقدام ! . وأتخذ كل المتربصين بالدستور الوليد هذا الحادث دليلاً لأدانة الحياة النيابية والحكم عليها بالفوضى ! .. وتناسى هؤلاء المتربصون كل الجرائم التى حفل بها عصر ما قبل الحياة النيابية والتى هدأت بمجرد قيام البرلمان ! .

يزحف اللورد اللنبى على رأس فرسانه المسلحين إلى رئاسة الوزراء . ويطلب من سعد أن يذعن لطلباته فيرفض . ويستقيل ويعلن فى البرلمان أن أغلبيته سوف تؤيد أى وزارة أخرى ترعى مصالح الوطن .

ولكن أصابة هذه الأغلبية هى هدف الأهداف ، فيعهد الملك فؤاد إلى أحمد زيور بتأليف الوزارة ، ويحل البرلمان ، وتجرى أنتخابات جديدة . وبعد أن ينعقد البرلمان الجديد بساعة واحدة يتبين أن الأغلبية مازالت إلى جانب سعد ، فيحل البرلمان الجديد أيضا ، بعد ساعات قليلة من مولده ! . والأحرار الدستوريون يؤيدون هذا كله ، ويشاركون فيه .. ومن وزرائهم فى هذا العهد عبد العزيز فهمى نفسه ، المدافع الشهير عن مشروع الدستور ! ..

هكذا يتمزق الدستور بعد مولده بشهور . ويخضب دمه أيدى الدعاة الأقدمين . وتجد (القوة الثالثة) أنها لم تكسب الكثير الذى توهمته .. وأن السلطة الفعلية والسلطة الشرعية مازالتا تخفيان نفس الشر القديم ..

أين عدلى ؟ .. وأين سعد ؟ ..

ـ أنهما منذ أحداث ١٩٢٤ ، يمران بفترة غريبة ، من السأم والملل والفتور .. كأنهما يشعران بأن الدور قد إنتهى وأن المعركة قد سكنت ، وأن القدر قد رسم لدوريهما هذا النطاق .

فعدلى ، منذ سقط حزبه فى الأنتخابات قد أدرك الموقف ، وعرف الصورة الجديدة للأمة . وهو يرى بعينه النفاذة ما سوف ينحدر إليه الصراع . والحلقة الضيقة التى سينحصر فيها اللعب منذ اليوم . فيعود إليه زهده وترفعه .. ويستقيل من رئاسة الحزب ، ويقضى أكثر وقته متنقلاً بين ربوع أوروبا ! .

وسعد بعد كارثة السردار يذهب إلى فندق ميناهاوس عند سفح الأهرام ، حيث يعتزل الناس .. وتطوف برأسه ذكريات الثورة العرابية .. والجمعية التشريعية ، المقاعد الخشنة فى قهوة متاتيا ، والمقاعد الوثيرة فى صالون الأميرة نازلى .. ثم الثورة التى أقترنت باسمه .. والنفى إلى مالطة وسيشل وجبل طارق .. ثم العودة الظافرة ، والجماهير الهاتفة .. والنصر المؤزر .. ثم الرصاصة التى أنطلقت إلى قلب السردار لتمزق الستار الزائف .. ولتكشف الخاتمة على حقيقتها :. لا أستقلال هناك ولا دستور .. لا شىء من هذين قد أستقر فى صورة كاملة راسخة ، إنما هى فقط خطوة مجيدة باسلة فى الطريق إليهما .

ويحول بصره عن الرمال المترامية ، ويضحك فى سخرية مريرة ، ويقول للقليلين الجالسين معه ملخصًا تجربة الوزارة الشعبية : «كانت غلطتنا أننا صدقنا أننا مستقلون ! » .

أن الهتافات تخفت .. وهو يعرف الآن مقدار الحلو والمر بالضبط ! .

الثورة قد إنتهت . وعاد الناس إلى أمور معاشهم ومنافعهم . إلى زراعتهم

وصناعاتهم وأعمالهم . وخروجه من الوزارة وتمزيق الدستور لم يقابل بالثورة التى قوبل بها نفيه إلى مالطة أو إلى سيشل . والأمة كسبت فقط ما رسمه لها لطفى السيد منذ عشرين سنة . فهى لم تكسب السيادة الكاملة ، ولكنها كسبت لنفسها مكانًا بين القوتين الاخريين . وعليها بعد ذلك أن تكافح كفاحًا مريرًا لكى تحتفظ بهذا المكان ، ولتزيده أتساعًا . وسوف تنحصر الحياة السياسية لمدة ربع قرن آخر فى هذا النطاق : صراع ومناورات بين القوى الثلاث : الأنجليز والقصر والأمة . وسوف تقوم حرب عالمية ثانية ، قبل أن يتجدد الوعى ويستعد الشعب لأنطلاق جديد ..

هكذا كان سعد وعدلى منذ سنة ١٩٢٤ ، كبطلين من زمان غابر أدركا عصرًا فاترًا لا هم له إلا الحديث عن أمجادهما . ولكنهما لا يعتزلان الحياة كلها بالطبع ، بل يجنحان إلى السلم والأعتدال . ويلتقيان لآخر مرة فى أئتلاف : سعد رئيس مجلس النواب سنة ١٩٢٧ وعدلى رئيس الوزارة الأئتلافية المؤيدة من البرلمان ...

ويمرض سعد فى قريته (مسجد وصيف) .. ويحج إليه الناس والأصدقاء القدامى . وقد أصبح على القرية كلها جلال التاريخ . حتى الفلاحين العاملين فى الحقول يبتسمون للزوار ، ويفخرون بأن فى قريتهم الصغيرة سعد . وتتراكم عليه الأمراض التى لم يبال بها حتى أدرك السبعين . وعندما يدركه الموت ، يلفظ آخر كلماته هامسًا :

ـ « أنا » أنتهيت ! ..

ولكن الجهاد المر .. من أجل مزيد من الحرية ومزيد من العدل .. لا ينتهى ! ..

الإسلام وأصول الحكم

هو شيخ شاب ، كان يعمل ـ سنة ١٩٢٥ ـ قاضيًا شرعيًا لمحكمة المنصورة . ولكنه لم يكن ككل من أخرج الأزهر فى ذلك الوقت من (مشايخ) ، فهو من أسرة (عبد الرازق) الغنية العريقة .. والتى تميزت بين الأسر الغنية العريقة بالأهتمام الخاص بالثقافة والفكر..

وفى تلك السنة ـ ١٩٢٥ ـ كان الدستور معطلاً ، وسعد زغلول مبعدًا عن الحكم ، وكان الملك فؤاد يحكم مصر حكمًا أستبداديًا بواسطة وزارة من حزبى الأتحاد والأحرار الدستوريين يرأسها أحمد زيور .

وفى تلك السنوات ، سقطت الخلافة الإسلامية فى تركيا تحت أقدام أتاتورك الذى طارد فى بلاده الخلافة والإسلام على السواء .. وخلت الدنيا من الخلافة الإسلامية .. لأول مرة منذ أكثر من ألف عام ، أى منذ وفاة النبى .

والتقط الأنجليز (فكرة الخلافة) الواقعة على الأرض . نعم ، لماذا لا ينشئون هم خلافة إسلامية جديدة تنمو فى رعايتهم ؟ .. وأن الخلافة لحجة قديمة للتغرير

بالمسلمين ، وخلف عباءتها الواسعة تنكرت أنواع من المظالم والخطوب . وهى قد خرجت من مكة وتنقلت بين دمشق وبغداد والقاهرة وأستانبول ، يمتطيها الحاكم الذى يستبد بالمسلمين .. أمويًا فى دمشق ، عباسيًا فى بغداد ، فاطميًا فى القاهرة ، عثمانيًا على ضفاف البوسفور . واليوم ـ بعد الحرب العالمية الأولى ـ أصبح المستبد بهذه البلاد هم : الانجليز ، فلماذا لا يعززون أستعمارهم ـ أيضًا ـ بالخلافة الإسلامية ؟ .. وإذا كان من المستحيل ـ هذه المرة ـ أن يكون الخليفة انجليزيًا ، فالعملاء بين المسلمين ما أكثرهم ، لماذا لا يجعلون واحدًا منهم خليفة للمسلمين ؟ .. وما هو أكبر عرش فى الشرق الأدنى ، وأقدم عرش يحمل بركة الأنجليز ويعترف لهم بالجميل ؟ .. إنه عرش مصر الذى لولاهم لا قتلعته زوبعة عرابى . والجالس على العرش (فؤاد) الذى عينوه سلطانًا فملكا منذ سنوات لا تبلغ العشر ..

وسمع الملك فؤاد هذه القصة .. فبدأ يحلم بها .. وأن لم يطلق لحيته كما صنع فاروق من بعد ! ..

وأدرك القصة أيضًا الأذناب .. وتجار الدين ، فبدأوا يبثون الدعوة للخلافة الجديدة .. التى علقوا بقيامها شرف الإسلام ! ..

والمدركون لهذه المؤامرة لا يتكلمون ، لا أحد يستطيع أن ينطق بكلمة ضد فؤاد ولا أحد يجسر على أن يحصب (كهنة) الدين بحصاة .. ولكن الشيخ الشاب ، قاضى محكمة المنصورة الشرعية زين له شبابه وتحرره أن يقف ضد هذا كله . وأن يعكف على البحث بضع سنين ثم يخرج على الناس بكتاب صغير لا تزيد صفحاته على المائة إلا قليلاً ، اسمه (الإسلام وأصول الحكم) .. فيكون له دوى القنبلة ،

ويكون من شأنه أن يسقط وزارة ويفض ائتلافًا ويحول فى السياسة المصرية تيارًا خطيرًا .

* * *

ماذا قال (الشيخ) على عبد الرازق فى هذا البحث الخطير؟ .

● تساءل ـ أولاً ـ عن سند هذه الخلافة . فقرر أن القرآن والأحاديث لم يرد فيهما أى نص على الخلافة كنظام للحكم يجب أن يلتزم به المسلمون ، بقى سند شرعى ثالث هو: الإجماع ، أى اتفاق المسلمين على شىء .. فقرر أن الخلافة الإسلامية لم توجد أبدًا بالإجماع ، فباستثناء الخلفاء الثلاثة الأولين ـ أبو بكر وعمر وعثمان ـ لم تقم الخلافة الإسلامية أبدًا على أساس الأختيار الحر ، بل قامت بقوة السيف ، وعلى أسنة الرماح (فذلك الذى يسمى عرشًا لا يرتفع إلا على رؤوس البشر ، ولا يستقر إلا فوق أعناقهم . وذلك الذى يسمى تاجًا لا حياة له إلا بما يأخذ من حياة البشر ولا قوة إلا بما يغتال من قوتهم) .

وضرب الأمثلة الكثيرة التى تدل على أن الحكومة كانت تقوم بالقوة ، فروى ـ مثلاً ـ قصة مبايعة يزيد لولاية العهد بعد معاوية ، حين جلس معاوية وبجانبه إبنه يزيد . وأجلس حوله كبار رجال الدولة .. ثم وقف رجل يمسك سيفًا وقال : أمير المؤمنين هذا (وأشار إلى معاوية) فإن هلك فهذا (وأشار إلى يزيد) فمن أبى فهذا (وأشار إلى السيف) ! .. وروى كيف أستباح يزيد دم الحسين ليستقر فى الخلافة . وكيف سمى أول الخلفاء العباسيين (بالسفاح) لكثرة ماكان يسفح من دماء المسلمين ...

وساق دليلاً آخر على أن الخلافة كانت حكمًا أستبداديًا غاشمًا هو : أن العرب طيلة هذه القرون الطويلة برزوا وتفوقوا فى كل أنواع العلوم والفنون ، ماعدا : علم

السياسة . ولا يختفى علم السياسة من الوجود إلا إذا كان الحكم أستبداديًا ، تعسفيًا ، مطلقًا ..

● ثم تحدث عن الرأى القائل بأن الخلافة ضرورية لبقاء الدين الإسلامى ، فقال : (معاذ الله ! .. لا يريد الله جل شأنه لهذا الدين الذى كفل له البقاء أن يجعل عزه وذله مرتبطين بنوع من الحكومة ، ولا بصنف من الأمزاء ! ولا يريد الله جل شأنه بعباده المسلمين أن يكون صلاحهم وفسادهم رهن الخلافة ولا تحت رحمة الخلفاء !) .

● وخلص من ذلك إلى أن القرآن لم يحدد شكلاً معينًا للحكومة بل اشترط مجرد وجود حكومة ، أيا كان نوعها .. ملكية أو جمهورية أو ديمقراطية أو أشتراكية .. أما الخلافة بالذات (فليس بنا من حاجة إليها لأمور ديننا ، ولا لأمور دنيانا ، فإنما كانت الخلافة ولم تزل نكبة على الإسلام وعلى المسلمين !) .

وبعد أن فرغ المؤلف من بيان حكم القرآن والسنة ، إنتقل إلى السوابق التاريخية فتساءل :

● هل كان النبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .. رسولاً أم ملكًا ؟ . فقال أن الرسالة شىء والملك شىء آخر ، وقد حدث كثيرًا أن وجد الرسول والملك فى وقت واحد . وضرب مثلاً بكلمة المسيح الشهيرة (أعطوا ما لقيصر وما لله لله) وقال أن هذه الكلمة فيها معنى الأعتراف بسلطة القيصر الزمنية . كما أن يوسف عليه السلام كان موظفًا فى حكومة فرعون مصر .

أما بالنسبة للنبى . فقد لاحظ المؤلف أن علماء الإسلام ليس لهم رأى واضح فى شأنه ولكن الأعتقاد الشائع بين المسلمين أن النبى كان رسولاً وحاكما ، وإنه أسس دولة سياسية .. ثم أخذ يناقش هذا الأعتقاد :

● فإذا كان النبي قد قصد حقًا إلى إقامة دولة سياسية يحتذى عليها من بعده .. فلماذا كانت دولة النبي خالية من كثير من أركان الدولة الرئيسية ؟ .. إنه لم ينشئ ميزانية للدولة ولا دواوين لشؤون خارجية وداخلية وغيرها . ولم يضع نظامًا مكينًا للقضاء والجيش . فكيف يقال بعد ذلك أن النبي أراد إنشاء دولة ؟ كيف يكون قد أراد إنشاء دولة سياسية وهو لم يتحدث إلى رعيته فى شكل الشورى وكيف تكون ؟ .

● فإذا سلمنا جدلاً بأن النبي أراد أن ينشىء دولة سياسية ، فهنا يقفز سؤال آخر : هل كان إنشاء هذه الدولة جزءًا من رسالته ، أم خارجًا عنها ؟ .. أنصار الحكومة الدينية يقولون إنها جزء من رسالته .. ولكن على عبد الرازق يقول : إن النبي لم يضع أسسًا واضحة للدولة ، بل ترك من جاؤوا بعده فى حيرة شديدة يضطربون ويبتكرون . ولو كانت جزءًا من الرسالة حقًا لما تصورنا أن يتركها النبي ناقصة بغير بيان .

● إذن فالصواب فى رأى المؤلف هو أن النبي جاء يبلغ الناس دينًا ، لا نظامًا للحكم ، وإنه كان رسولاً لا ملكًا .. هو رسول (كإخوانه الخالدين من الرسل ، وماكان ملكًا ولا مؤسس دولة ولا داعيًا إلى ملك) ..

وساق المؤلف على ذلك أدلة كثيرة :

● فالقرآن تتضافر آياته على أن النبي لم يكن له شأن بالملك السياسى ، وإنه كان رسولاً فقط ، وقد أورد المؤلف دليلاً على ذلك ٤٥ آية من القرآن ، منها :

(من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظًا) . (وكذب به قومك وهو الحق ، قل لست عليكم بوكيل) و (أعرض عن

المشركين ، ولو شاء الله ما أشركوا ، وما جعلناك عليهم حفيظًا وما أنت عليهم بوكيل) . (فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظًا ، إن عليك إلا البلاغ) . (فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر) . (ما أرسلناك إلا مبشرًا ونذيرًا) .. (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) . (ما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى أختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) .

● والأحاديث أتى منها بأمثلة مشابهة .. منها ما حدث حين مثل رجل أمام النبى فأخذته رعدة شديدة فقال له النبى : (هون عليك .. فإنى لست بملك ولا جبار ، وإنما أنا أبن امرأة من قريش تأكل القديد بمكة) .

● ثم أن النبى مرسل بهذه الدعوة إلى العالم كله ، إلى الناس أجمعين ، ولو كانت الدعوة لإقامة حكومة سياسية لما أتجهت إلى الناس جميعًا (معقول أن يؤخذ العالم كله بدين واحد ، وأن تنتظم البشرية كلها وحدة دينية ، فأما أخذ العالم كله بحكومة واحدة ، وجمعة تحت سياسة مشتركة فذلك مما يوشك أن يكون خارجًا عن الطبيعة البشرية ، ولا تتعلق به إرادة الله) .

● أضف إلى ذلك أن النبى حين أتى بالدين الجديد لم يتعرض للعادات السياسية والإدارية الموجودة فى البلاد العربية . إلا أن الدعوة الدينية نفسها قللت ـ بالطبع ـ من الفروق الموجودة بين القبائل والمناطق المختلفة . كما أنه لم يشر طوال حياته إلى (دولة) إسلامية أو عربية .

● دليل آخر .. أن النبى مات ولم يعين بعده خليفة ولا حاكمًا .. ولم يحدد نظامًا للشورى أو البيعة أو غيرها ..

فكيف إذا كان من عمله أن ينشىء دولة . أن يترك أمر تلك الدولة مبهما على المسلمين ليرجعوا من بعده حيارى يضرب بعضهم برقاب بعض ! كيف يتركهم

عرضة لتلك الحيرة القاتمة السوداء التى غشيتهم وكادوا فى غسقها يتناحرون ، وجسد النبى بينهم لما يتم تجهيزه ودفنه ! .

● وبعد أن ساق المؤلف هذه الأدلة على أن النبى كان رسولاً لا ملكاً ، وكان يدعو إلى دين لا دولة ، أنتقل إلى خطوة تالية فقرر : أن الرسالة إنتهت بموت النبى ، فمن يأتى بعده ليس خلفًا له فى الرسالة ، ولا فى هذه الزعامة الدينية . لأن تبليغ الرسالة قد تم ولا يمكن إضافة شيء إليها بعد . فالزعامة التى تأتى بعد النبى زعامة جديدة من نوع جديد ، ليست قائمة على الدين . هى أذن زعامة مدنية سياسية هى حكومة وسلطان لا رسالة ودين .

كان أبو بكر أول (ملك) فى الإسلام .. أى أول حاكم دنيوى .. وأطلاق لقب (الخليفة) عليه ، لم يكن إلا تجاوزًا .. لأنه ليس خليفة للنبى فى رسالته التى تمت بموته .

والنظام الذى حكم به أبو بكر كان نظامًا دنيويًا لا دينيًا ، أبتكره ولم يأخذه عن النبى ، وبعد موت النبى كانت أول مرة خاض فيها العرب فى ذكر الأمارة والأمراء والوزارة والوزراء . قال الأنصار للمهاجرين : منا أمير ومنكم أمير . وقال أبو بكر لهم : بل منا الأمراء ومنكم الوزراء .. وهذا نقاش سياسى بحت ، حول نظام دنيوى بحت .

والدولة التى أقامها العرب ـ بعد وفاة النبى ـ دولة عربية لا دولة إسلامية . دولة عربية ، وأن كان الإسلام هو الذى بث فيها الروح ونفخ فيها القوة ، إلا أنها قامت لتأييد سلطان العرب . وروجت مصالح العرب ، ومكنت لهم فى أقطار الأرض فأستعمروها أستعمارًا ، وأستغلوا خيرها إستغلالاً ، شأن كل الأمم القوية التى تتمكن من الفتح والأستعمار .

● والدليل الذى ساقه على ذلك ، أن الذين رفضوا مبايعة أبى بكر ، أو تأخروا فيها ، لم يعتبروا كفارًا ، كما كان يعتبر الذين يرفضون الأعتراف بمحمد . ذلك أن سلطة أبى بكر سلطة دنيوية يجوز الجدل فيها لا سلطة دينية .

● على أن الذين تعاقبوا على أمور المسلمين بعد ذلك .. أستغلوا كلمة (الخلافة) وما يحيط بها من قداسة ، وأستغلوا أن أول من حمل هذا اللقب هو أبو بكر صاحب النبى وصفيه . فتمسكوا باللقب ليكسبوا لأنفسهم قداسة تحمى مفاسدهم من الثائرين ..

وعند هذه النتيجة ، ختم الشيخ على عبد الرازق كتابه قائلاً :

(وتلك جناية الملوك وأستبدادهم بالمسلمين .. أضلوهم عن الهدى ، وعموا عليهم وجوه الحق ، وحجبوا عنهم مسالك النور باسم الدين . وبأسم الدين أيضًا أستبدوا بهم وأذلوهم ، وحرموا عليهم النظر فى علوم السياسة وباسم الدين خدعوهم وضيقوا على عقولهم .. فصاروا لا يرون لهم وراء ذلك الدين مرجعًا !) .

هذا هو الكتاب .. واضح فى سطوره أنه لا يهاجم الخلافة فقط ، ولا الحكومة الدينية وحدها ، بل والنظام الملكى أيضًا . فلم يكد يخرج إلى النور حتى هبت فى وجهه الزوابع ، ومن جميع الأتجاهات : الملك وأذنابه ثاروا ، لأن الكتاب فيه حملة هائلة على الملوك ، وفيه تحطيم شامل لحلم الخلافة البراق ، ورجال الدين ثاروا لأنهم رأوا فى هذا المنطق ما يزعزع سلطاتهم ، ويعطل منافعهم فى الأتجار بالدين ، ويكشف عن حقيقة هذه العمائم الضخمة ، التى لا ترتفع إلا لتستر وراءها الظلم والأستبداد .. ثم هناك الرجعيون بتفكيرهم ، والذين يتملقون مشاعر الجماهير ، ولو بمجاراة الجهل والظلام ! .

أما رجال الدين ـ ولنبدأ بهم ـ فقد أطلقوا قذائفهم من المقالات والأبحاث والكتب .. ونختار مما أخرجوه كتابًا يوضح لك ـ أيها القارئ ـ رأيهم .. كتاب أسمه (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) أخرجه فى ذلك الوقت شيخ من علماء الأزهر أسمه : محمد الخضر حسين .. شيخ الأزهر السابق .

أهدى الشيخ محمد خضر حسين كتابه (إلى خزانة حضرة صاحب الجلالة فؤاد الأول ملك مصر الأعظم) راجيًا (أن يتفضل عليه بالقبول ، والله يحرس على ملكه المجيد . ويثبت دولته على دعائم العز والتأييد) .

ولعله من الطريف أيضا أن نذكر أن على عبد الرازق صدر كتابه بقوله (أشهد أن لا إله إلا الله ، لا أعبد إلا أياه ، ولا أخشى أحدًا سواه ؟) مشيرًا إلى الملك .. وأن الشيخ الخضر صدر كتابه ـ بعد الأهداء السابق ـ بالصلاة والسلام على النبى وآله و (على كل من حرس شريعته بالحجة أو الحسام وأحسن الحراسة ؟) .. وهى أشارة أيضًا إلى أصحاب السلطان واضحة ! .

● قال الشيخ الخضر حسين أن المسلمين عرفوا علوم السياسة كغيرهم من الناس . وبرهن على ذلك بنصوص أعتبرها علومًا سياسية مثل قول أحسن بن أبى الحسن البصرى (كن للمثل من المسلمين أخا ، وللكبير أبنًا وللصغير أبًا) ومثل قول معاوية الشهير (لو كان بينى وبين الناس شعرة ما أنقطعت .. إذا شدوها أرخيتها وإذا أرخوها شددتها !) وقوله أيضًا (إنى لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ، ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا !) ..

وواضح أن هذه الأقوال من قبيل الحكم المأثورة ، وهى شىء آخر تمامًا غير العلوم السياسية بمعناها الحقيقى .

ويلاحظ أيضا أن الشيخ لم يتنبه وهو يضرب المثل بكلمة معاوية الأخيرة إنه

يسوق دليلاً على الأستبداد السياسى الذى يريد أن ينكره ، فمعاوية يقول إنه يترك الناس أحرارًا يقولون ما يشاؤون ماداموا لا يمسون سلطانه ! ..

● ورد على قول على عبد الرازق أن الملكية تنافى الحرية والأخاء والمساواة ولا تقوم إلا بالقهر ، فقال : (أن نظام الملكية لا ينافى الحرية والعدل) ودافع عن حكم الفرد المطلق فقال (أن الحكومة التى يرأسها فرد إذا كانت تعمل على طريق الحزم والشريعة العادلة لم تجد من مبادئ الإسلام ما يمنع من الأذعان لها !) .

الشيخ إذن يدافع عن الحكم المطلق ! ! .

ولم يقل لنا : إذا أخطأ هذا الحاكم الفرد وخرج عن الشريعة ماذا نفعل به ؟ .. هل نثور عليه ؟ .. أن معنى ذلك أن تكون الحياة سلسلة ثورات مما يهدم الأستقرار ! .. ثم ماذا يصنع الناس إذا كان الحاكم الفرد أقوى منهم بسلاحه وعتاده ؟ .. أليس من الخير إذن أن تكون الدعوى موجودة فعلاً . وأن يكون الحاكم مقيدًا أصلاً ؟ ..

● ولم يكتف الشيخ بذلك .. بل قال إن ملوك الإسلام كلهم ـ منذ كان الإسلام ـ لم يكونوا مستبدين ! .. وهو يقول (طالع أيها القارئ كتب التاريخ كتابًا كتابًا فلا أحسبك تعثر على مثال يشهد بأن ملكًا من ملوك الإسلام غضب لكتاب ألف فى السياسة أو كره الناس أن يترجموا كتابًا فى السياسة وأنى لا أعرف من ملوك الإسلام جميعًا من ضغط على حرية الرأى إلا السلطان عبد الحميد ! !) ..

وكان الملك فؤاد ـ طبعًا ـ يضغط فى ذلك الوقت عينه على حرية الرأى .

وأكد أن النبي كان ملكًا ـ بمعنى إنه كان حاكمًا دنيويًا . بدليل مزاولته أنواعًا من صور الحكم والقضاء .

ولم يلبث نطاق المعركة أن أتسع .. حتى شارك فيه كل إنسان تقريبًا . وإرتفعت حرارة الجدل حتى فقد أصحاب الأقلام أعصابهم ، وبدأوا يستعملون أقذع الأوصاف ..

وتزعمت الصحف التى تهاجم الكتاب جريدة (الأخبار) لسان حال الحزب الوطنى فى ذلك الوقت .. فهى تكتب فى أفتتاحيتها يومًا تقول : (لم يقع من نفوسنا موقع الأستغراب إقدام الشيخ على عبد الرازق على إصدار هذا الكتاب لأننا نعرف عنه فى كل حياته ضعفًا فى تحصيل العلوم . وطيشًا فى الرأى وإلحادًا فى العقيدة ! هذا إلى أنه إنغمر منذ سنين فى بيئة ليس لها من أسباب الظهور سوى الأفتئات على الدين وتقمص أثواب الفلاسفة والملحدين .. وصار خليقًا بلقب (الأستاذ المحقق) و (العلاّمة الكبير) و (المصلح المجدد) .. وغير ذلك من الألقاب التى يتقارضونها ويسمون أنفسهم بها !) .

وتقول فى يوم آخر : (مازالت صحيفة حزب عبد العزيز فهمى) تقصد « جريدة السياسة » التى كانت تدافع عن المؤلف خالعة العذار ، متهتكة مستهتكة فى الألحاد ، لا تبالى إنتهاك سترها ، خارجة على دين المسلمين ، دين الدولة المصرية والراية المصرية ..

وفى اليوم الثالث ترتفع درجة حرارتها جدًا ، فتطلب « إضرام النار فى موقدى الفتنة ! » .

ولم تقف إلى جانب على عبد الرازق إلا جريدة (السياسة) .. فهى أولاً جريدة حزب الأحرار الدستوريين الذى ينتسب إليه آل عبد الرازق ، وهى ثانيًا الجريدة

التى جمعت أغلب الكتاب والمفكرين فى ذلك الوقت مثل طه حسين والمازنى ومنصور فهمى وهيكل .

كتب منصور فهمى عن الغزالى وفلسفته الإسلامية الحرة ..

وكتب المازنى قصة (جاليليو) العالم الشهير الذى كان أول من قرر أن الأرض تدور ، وكيف حاكمه القساوسة على هذا الأكتشاف وحكموا عليه بالأعدام حرقًا ، لأنه قال إن الأرض تدور ! .

وصدرت السياسة يومًا تنشر فى صدرها صور الترخيصات التى تمنحها الحكومة المصرية للعاهرات ليزاولن بها الدعارة الرسمية ، وترخيصات إدارة نوادى القمار وبيع الخمور .. وسألت الدولة الإسلامية ومشايخ الأزهر الأجلاء : هل هذه الدعارة مباحة شرعًا فأنتم تسكتون عنها ؟ .. وهل هذا البحث الحر أزعجكم كما لم تزعجكم أباحة الدولة (الإسلامية) للدعارة والقمار؟ .. أليست الحكومة المصرية ـ حينذاك ـ أولى بتهمة الكفر من على عبد الرازق بصفته من العلماء ، وبسرعة البرق اجتمعت الهيئة ، وقرأت الكتاب ، وقررت أنه كفر وإلحاد وخروج على الدين .. وقررت استدعاء على عبد الرازق للحضور أمامها ومحاكمته فى سبع تهم ، تتركز فى الكفر والمروق ..

وأنطلقت جريدة السياسة بكل أقلامها تهاجم هيئة كبار العلماء .. وكانت نقطة الأرتكاز فى حملتها : أن الدستور قد كفل فى مواده حرية الرأى .. وإنه لم يجعل لهيئة كبار العلماء أو غيرها سلطة على الأفكار ..

ولا حظ معى ـ أيها القارئ ـ أن الدستور الذى أستندت إليه جريدة السياسة كان فى ذلك الوقت معطلاً ، وكان حزب الأحرار نفسه مشتركًا فى حكم البلاد بلا دستور ؟ ! .

وذهب على عبد الرازق إلى مبنى الأزهر حيث عقدت الجلسة لمحاكمته .. ودخل قاعة كبيرة ، جلس فيها العلماء حول مائدة كبيرة فما أن رآه شيخ الأزهر ورئيس الجلسة حتى أشار إليه بعصبية قائلا : أقعد عندك ! .

وجلس المتهم ، ثم لوّح الشيخ فى وجهه بالكتاب : الكتاب ده كتابك ؟ .

المؤلف : أيوه .. ومصمم على كل اللى فيه ..

ثم دفع المتهم دفعًا فرعيًا ، هو أنه لا يعتبر نفسه أمام هيئة تأديبية ، وطلب من الهيئة أن لا تعتبر حضوره أمامها أعترافًا منه بأن لها حقًا قانونيًا فى محاكمته .. ورفضت الهيئة هذا الدفع .. وبعد مناقشة المؤلف أعلنت الهيئة أن الحكم سيصدر بعد أيام ..

وفى ٢٥ أغسطس أصدرت هيئة كبار العلماء حكمها : بتجريد الشيخ على عبد الرازق من العالمية ، « لأنه أتى بأمور تخالف الدين والقرآن الكريم والسنة النبوية وإجماع الأمة » .

وصدرت (السياسة) فى اليوم التالى .. وفى صدرها كلمة رصينة للشيخ على عبد الرازق تقول :

« لا جرم أننا تقبلنا مسرورين أخراجنا من زمرة العلماء . وقلنا كما يقول القوم الذين إذا خلصوا من الأذى قالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الأذى وعافانا » .

وأعلن الشيخ الشاب إنه قد هجر ملابس الشيوخ ، وإنه سيصبح منذ اليوم (أفنديًا) ..

وإلى جانب هذه الكلمة ، حفلت الجريدة بالتعليقات الكثيرة لكتابها

البارزين .. من أجملها مقال بغير توقيع ، ينم أسلوبه عن أن كاتبه طه حسين ، يقول :

« .. سنعرف أفى مصر دستور أم بهتان وزور . أيستطيع الناس أن يفكروا أحرارًا وأن يكتبوا أحرارًا ؟ وأن يعيشوا أحرارًا ، أم هم مأخوذون بلون من التفكير والحياة ، يأمنون ما حرصوا عليه فإن عدوه وأعرضوا عنه فويل لهم من عذاب أليم ! » ..

« .. أيه أيها الطريد من الأزهر ، تعال إلىّ نتحدث ضاحكين عن هذه القصة المضحكة ، قصة كتابك والحكم عليه وعليك وطردك من الأزهر .. ما بال رجال الأزهر لم يقضوا على كتابك بالتمزيق ، فقد كان يلذنا أن نرى نسخه فى صحن الأزهر أو أمام (باب المزينين) أو ناحية من هذه الأنحاء التى لا يأيتها ولا يصل إليها المنكر ولا يسعى إليها إلا الأخيار والأبرار ، ثم تضرم فيها النار ! .

« دعنا نتحدث فى حرية ولا تكن أزهريًا . فقد أخرجت من الأزهر ..

« ثم تعال نجد ، فقد آن لنا أن نجد. ما هذه الهيئة التى أخرجتك من الأزهر ؟ ما سلطتها الدينية ؟ على أى آية من كتاب الله تستند ؟ أركن هى من أركان الإسلام كالإمامة ؟ كلا ، إنما هى بدعة لا يعرفها القرآن الكريم ولا تعرفها السنة المطهرة ولا النظم الإسلامية .. هى بدعة فليس لحكمها صفة دينية ، ومن قال غير ذلك فهو آثم .. نعم آثم لأن هذا النظام يشبه أن يكون من نظم النصارى لا من نظم المسلمين .. للنصارى مجلس للأساقفة ومجلس الكرادلة ولهم البابا ، أما نحن فليس لنا من هذا كله شىء ..

فسلام عليك أيها الطريد .. وإلى اللقاء ! » .

ولا أستطيع إلا أن أتوقف عن سرد القصة مرة أخرى .. وأتساءل معك كقارئ أيها القارئ ـ عن هؤلاء الكتاب .. ما خطبهم ؟ .. هؤلاء الكتاب الذين يحملون لواء الدعوة إلى حرية الفكر ـ وأنا مؤمن بإخلاصهم فى ذلك ـ كيف يثورون لحرية الرأى فى نفس الوقت الذين كانوا يؤيدون فيه وزارة تعطل الدستور وتصادر الحريات جميعًا ؟ ..

كيف تزعجهم إلى هذا الحد مصادرة رأى كاتب واحد . ولا تزعجهم مصادرة الدستور وآراء الناس جميعًا ؟ !

لقد كان الباحثون فى تاريخنا الأدبى يصطدمون دائمًا بهذه الظاهرة الغريبة : ظاهرة تجمع كل رواد الأدب والتفكير الجديد والبحث العلمى الحر ، فى المعسكر المعادى للدستور فى تلك الفترة الأولى من تاريخنا الدستورى .. كان فى هذا المعسكر هيكل وطه حسين والمازنى ومحمود عزمى ومنصور فهمى وغيرهم ممن قادوا الأدب المصرى قيادة لا شك فيها .. وذهب هؤلاء الباحثون إلى تفسير الأمر أحيانًا بأسباب عائلية ، وأسباب أخرى شخصية .. ولكن المسألة ـ فيما أرى ـ تحتمل تفسيرًا آخر أكثر (موضوعية) لعله لا يبعد كثيرًا عن الصواب :

فالواقع أن هناك فرقًا بين الحرية كعقيدة إجتماعية ، تؤدى إلى نظم وحقوق وواجبات ، وبين الحرية (كمنهج فكرى) يقوم على أسس فلسفية ..

فالحرية كعقيدة إجتماعية شىء جديد نسبيًا ... مؤداه أن يكون الناس أحرارًا فى أختيار نوع الحياة التى يحيونها ، وبالتالى فى أختيار نوع الحكومة التى يرونها قادرة على أن تحقق لهم هذه الحياة .. هذا النوع من الحرية يتنافى مع الرق الذى يجعل حياة العبد مكرسة لخدمة شخص آخر .. ويتنافى مع الدكتاتورية التى تفرض على الناس نوعًا من الحياة لا يوافقون عليه .. ويتنافى مع فكرة الحزب الواحد التى تجعل

الإنسان إما أن يختار هذا الحزب الواحد وإما أن ينصرف عن كل أختيار .. وأقول إن هذه الحرية جديدة نسبيًا ، لأن وسيلة أستعمال هذه الحرية وتطبيقها ـ وهى حق الأنتخاب العام للجميع ، علماء وجهلاء ـ لم يتقرر إلا منذ مائة سنة أو تزيد قليلاً ..

أما الحرية كمنهج فكرى ، فشىء آخر أقدم عهدًا .. وهى حرية كان يؤمن بها أفراد قليلون بلغوا من الثقافة والمعرفة درجة عالية ، فأصبحوا يرون من حق عقولهم أن تفكر وتكتشف وتبتكر وتناقش بلا قيد .. فالفلاسفة الذين وضعوا كل شىء موضع المناقشة الحرة ظهروا قبل حق الأنتخاب بقرون .. ورجل مثل أفلاطون أو أرسطو كان يؤمن ولا شك إيمانًا مطلقًا بحقه فى حرية الفكر ، دون أن يجد غضاضة فى نظام الرق الذى كان موجودًا فى اليونان ... وجاليليو الذى رأى من حقه أن يعلن أن الأرض تدور ، لعله كان يقتنى عبدًا ، ليس من حقه أن يترك خدمته قط ..

فالحرية كمنهج فكرى أذن مقصورة دائمًا على السادة ، والممتازين فى الثروة أو الثقافة أو الذكاء ... وقد كان هذا شأن هؤلاء الكتاب .. كانوا من أوائل المصريين الذين شربوا من مناهل الثقافة الأوروبية الحديثة ، وقد عادوا فكانت أقرب بيئة إلى ثقافتهم الرفيعة هى بيئة السادة من الأغنياء والمترفين الذين تشيع بينهم الثقافة أكثر مما تشيع بين غيرهم .. وهكذا رأينا طه حسين يرى من حقه أن يصدر كتاب (الشعر الجاهلى) يناقش فيه قصص القرآن نفسه ، وعلى عبد الرازق يصدر كتابه هذا يناقش فيه معتقدات رجال الدين الراسخة منذ مئات السنين ... وكانوا فى سبيل الدفاع عن آرائهم وبحوثهم مستعدين لتحمل أكبر العناء . بل لقد تحملوه فعلاً ! .. ولكنهم لم يكونوا يتحمسون الحماس نفسه لحرية الشعب .. بتجاره وعماله

وفلاحيه .. بعلمائه وجهلائه .. هو السيد .

وقد تطورت الأمور بعد ذلك بهؤلاء الكتاب .. فمنهم من أدرك أن قضية الحرية كل لا يتجزأ . فأصبح (ديمقراطيًا) مثل طه حسين ومحمود عزمى ، ومنهم من أعفى نفسه ونفض يده من المشكلة كلها . فلم يعد يكتب إلا ما يبعده عن هذه المشكلات الشائكة ، مثل المازنى ومنصور فهمى ، ومنهم من ظل متحمسًا لقضية الحرية كمنهج فكرى وأن بقى إيمانه بالحرية كعقيدة إجتماعية ضعيفًا ...

* * *

ثار إذن كتاب جريدة « السياسة » على الحكم القاضى بتجريد على عبد الرازق من رتبة العالمية ثورة عنيفة .. وذهبوا فى مهاجمة هذا الحكم إلى أقصى الحدود . واقفين بمفردهم أمام الجميع : أمام القصر وأمام الرجال الدين ، وأمام الحكومة التى يشترك فيها حزبهم ، وأمام صحف الحزب الوطنى التى تطالب بأحراقهم . وأمام الصحف الوفدية التى لم تكن تهتم بالقضية إلا بقدر ما تشمت فى الأحرار الدستوريين ، وتنتظر خروجهم من الوزارة .

أما القصر وحزب الأتحاد الذى كان شريكا للأحرار الدستوريين فى الوزارة ! ـ فقد قرروا المضى فى إحراج الأحرار الدستوريين إلى أقصى الحدود .. وكان وزير الحقانية هو عبد العزيز فهمى رئيس حزب الأحرار وقد أرسل إليه حكم هيئة كبار العلماء لكى يفصل الشيخ على عبد الرازق من وظيفته كقاض شرعى . فماذا يصنع ؟ .. هل يفصل على عبد الرازق مضحيًا بأسرة عبد الرازق التى تعتبر أساسًا من أسس الحزب ومخاصمًا جريدة الحزب وكتابه ؟ أم يرفض الطلب مضحيًا بالوزارة والحكم ؟ .

وأختار عبد العزيز فهمى حلاً وسطًا فأحال حكم هيئة كبار العلماء على قلم

قضايا الحكومة لبحث الموضوع وأبداء الرأى فيه .. ولكن هذا الموقف لم يعجب السراى ... وأستيقظ عبد العزيز فهمى ذات مساء ليقرأ فى ملحق أصدرته جريدة (الأتحاد) مرسومًا ملكيًا يقضى « بتكليف على ماهر باشا وزير المعارف بالقيام بأعباء وزارة الحقانية إلى أن يعين لها وزير بدلا من عبد العزيز فهمى » .

هكذا طرد الوزير ، ورئيس الحزب من الوزارة شر طردة .

وقابلت جريدة « الأخبار » المأساة أول الأمر بالشماتة البالغة ، فكتب أمين الرافعى يقول « أن الطرد عنوان التلامة والبرود .... وأى برود وأى تلامة ... برود حزب وتلامة حزب ... قاتلناه يوم كان علقة ثم مضغة ثم صور حزبًا ! .. قاتلناه وهو رضيع ثم طفل ثم شاب ثم شيخ ، ولم نقاتله فى سن الرجولة لأنه لم يمر بها ... ».

ولكن الشماتة سرعان ما أنتهت . وأتجهت الأخبار إلى الجميع ، تهاجم (هذه السابقة الدستورية الخطيرة التى لا مثيل لها فى تاريخ أمة دستورية متمدنة) .

وقد كانت السابقة فريدة حقًا ، لم تحدث قبل ذلك قط ، ولم تتكرر بعد ذلك إلا مرة واحدة فى سنة ١٩٥١ ، حين صدر مرسوم بتعيين فؤاد سراج الدين وزيرًا للمالية بدلا من زكى عبد المتعال ...

فماذا يصنع حزب الأحرار أزاء هذا الطرد المشين ؟ ..

أما الكتاب فقد عزموا على المضى فى الطريق إلى غايته ، وقد أدركوا أن الحياة بغير دستور لن تزيد على هذا الهوان .. أما أصحاب المصالح الحقيقية الذين يكوّنون جوهر الحزب .. فقد ترددوا ... ومالوا إلى البقاء فى الحكم ... إيثارًا لمصالحهم على كل الأعتبارات ..

ولا يروى لنا تلك اللحظات ، وهذا الصراع ، خير من الدكتور هيكل الذى لعب الدور الأول فى هذه الأيام والذى قال فى مذكراته :

(لم أطق حين أتممت قراءة الخبر صبرًا ... فماذا فعل الوزيران الدستوريان محمد على علوبة باشا وتوفيق دوس باشا وقد أخرج رئيس الحزب من الوزارة على هذا النحو المزرى بالحزب كله ؟ .. وأتصلت بكازينو سان أستيفانو بالإسكندرية تليفونيًا ، وطلبت التحدث إلى توفيق دوس باشا وسألته عن الخبر . فتلجلج قائلاً : لا أدرى ! . قد يكون الخبر صحيحًا .. قلت : أريد أن أعرف على سبيل القطع .. فقال : نعم ، هو صحيح .. قلت : فماذا فعلت أنت وعلوبة باشا ؟ . قال أرجوك يا دكتور أن تهدئ ثائرتك ، فالأمر يحتاج إلى روية ! . قلت : إذن سأدعو الحزب إلى الإجتماع ..

(وقد علمت أن أتصالات كثيرة كانت تجرى بين المسؤولين بالإسكندرية وبين جماعة من أعضاء مجلس إدارة الحزب . لحملهم على معارضة تخلى الحزب عن الأشتراك فى الوزارة .. وعلمت مساء الأثنين أن توفيق باشا دوس وحلمى عيسى باشا سيحضران من الإسكندرية وأنهما سيحاولات تجديد الأتصالات بالدستوريين لبقاء الحزب فى الوزارة ، وأنى لهابط بالمصعد من غرفتى فى الفندق صباح الثلاثاء ، لقينى سيد باشا خشبة وقد أبتدرنى بعد التحية محتجًا على مقالات السياسة تأييدًا لكتاب على عبد الرازق ، ضارعًا إلى أن أدع شؤون الدين لرجال الدين .. قلت : ولكننا نؤيد حرية الرأى التى قررها الدستور فإن شئتم أن لا يحترم الدستور فأنا مستعد أن أترك السياسة وتحريرها ..

(وكان عبد العزيز فهمى لا يزال فى الإسكندرية ، وقد أزمع المجئ إلى القاهرة بالقطار الذى يصل إليها حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر .. لهذا رأيت واجبًا أن

أخف للقائه بمحطة السكة الحديد ، وأن أطمئنه إلى ما أتفقنا عليه .. وألفيت الرجل أشد ما يكون وجلاً خشية أن تؤثر الحكومة فى أعضاء مجلس الإدارة ، وخيفة أن لا يستقبل علوبة ودوس باشا لو أن قرارًا صدر من الحزب بإستقالتهما ...

(واجتمع مجلس الإدارة ، وقد بدأ توفيق دوس باشا يعرض ما حدث ، ويذكر ما دار بينه وبين رجال القصر ، وما دار بخاصة بينه وبين مستر نيفل هندرسون المندوب السامى البريطانى من أحاديث يراد بها تخطى هذا الموقف الدقيق .. وتكلم بعده علوبة باشا كلامًا فى الأتجاه نفسه .. فلما فرغ الوزيران تكلم الأستاذ عبد الجليل أبو سمرة فطلب إلى الهيئة أن تتخذ القرارات التى كنا أتفقنا عليها وفى مقدمتها أستقالة الوزيرين الدستوريين وتخلى الحزب عن الأشتراك فى الوزارة .

وبينما كانت جلسة الحزب معقودة فى داره ، كان عبد العزيز فهمى باشا قد جاء إلى فندق الكونتننتال وجلس فى شرفة الفندق منتظرًا نتيجة الأجتماع . ولقد بعث من الجالسين معه من سأل غير مرة بالتليفون عما إذا كانت الجلسة قد إنتهت .. فلما إنتهت إلى القرارات (أستقالة الوزيرين) أطمأن ، وعاد إلى منزله مستريحًا إلى أن الحزب قد أنتصف لكرامته) ...

إلى هذا الحد كان تردد الحزب فى ترك الحكم ، رغم كل هذه الظروف . وما ترك الحزب الحكم إلا بدفعات قوية من الكتاب محررى (السياسة) .

فهل تعلم الأحرار الدستوريون من هذا الطرد شيئًا ؟ .

أن عبد العزيز فهمى .. نفس الرجل الذى وصف الدستور بأنه ثوب فضفاض على هذا الشعب .. وقف بعد ذلك فى سرادق واسع يخطب ، ويعترف ، فيقول فى حرارة بالغة :

(قدر الله عليّ أن دخلت الوزارة وكنت من قبل طليقًا . ولكنها كانت محنة ، أحمد الله على أن نجانى منها قبل أن تأتى على البقية الباقية من الكرامة !) .

ووصف الوزراء فى الوزارات غير الدستورية فقال : (لم يمض إلا أقل من شهر حتى كان ما كنت أخشاه ، وظهر لى أننا لسنا وزراء ، بل إننا أناس يراد سوقنا عند الأقتضاء إلى ما لا يود الرجل الشريف) .

ولخص تجربته المريرة كلها قائلاً : (إن من الواجب علينا أن نحافظ على الدستور فى كل مقام ، بقطع النظر عن كل أعتبار .. أن هذه الأمة لا تسكت عن حقها ، إنها قديمة العهد فى طلب الدستور) ! ..

الفهـــرس

رقم الأيداع : ٥٣٦٨/ ٩٥
I.S.B.N. 977 - 01 - 4437 - 1



مكتبة الأسرة



بسعر رمزى جنيه واحد

بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥



الهيئة المصرية العامة للكتاب